المُغول

■ اعرف كل شيء ■

المُغُول

إعداد

سامى محمد المرسى





٢ شارع امتداد رمسيس (١) ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ ـ ٢٤٠٥١٤٩٨

e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١١ م/ صفر ١٤٣٢ هـ

رقم الإيداع: ٢١٦٩٩ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي: ٢ ـ ٠٤٥ ـ ٤٩٥ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨

بيانات الفهرسة المكتبية
(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

المرسى، سامى محمد.
المغول/
إعداد سامى محمد المرسى . .
ط ١ . ـ القاهرة: دار العالم العربى، ٢٠١١.
٢٤٠ ص؛ ٢١ سم . . (اعرف كل شىء)
تدمك: ٢ ـ ٠٤٥ ـ ٤٩٥ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١. المغول والتتار
٢. العالم الإسلامى ـ تاريخ
أ. العنوان
ديوى ٩٥٠,٢




بسم الله الرحمن الرحيم


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

/

مُحتَوَيَاتُ الكِتَاب

4. «أوكتاي خان»

5. سقوط الخلافة العباسية

6. «هولاكو» وبلاد الشام

7. معركة عين جالوت

8. بلاد فارس بعد وفاة «هولاكو»

9. المغول في الهند


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

مُقَـدّمَة

عندما تتردد على مسامعنا سيرة المغول، تقفز إلى أذهاننا تصورات حول الشعوب المغولية التى عُرفت فى الماضى بالشدة والجبروت، علاوةً على الغلظة والوحشية.. فمن يقف فى وجه مطامعهم العريضة، فمصيره الزوال. عليك أن تتخيل حقيقة الشعب المغولى الذى كان يعيش فى منطقة من أقسى بقاع الأرض من حيث ظروف المعيشة والتباين الواضح فى المناخ، الأمر الذى جعل هذه القبائل تتحلى بالصبر على ما هى فيه من قسوة المعيشة. وبالفعل كانت حياة هذه الشعوب كلها معاناة وعسر، فلم يكن لها شاغل إلا توفير الحد الأدنى مما يكفل لها الحياة، ولذلك نشأ الصراع المتكرر والدائم فيما بينها للفوز بالمراعى الخصبة والسيطرة على مصادر المياه.

لكن ما يدهشنا هو كيف نجحت هذه الشعوب الرعوية البسيطة فى أن تتحول إلى شعوب مقاتلة، قادرة على تحقيق النصر

تِلْوَ النصر على الشعوب التى تمتلك أدوات الاستقرار وتعيش حياة أشبه ما تكون بالنعيم الدائم!

أعتقد أن العزيمة والإصرار كانَا وراء بروز هذه الشعوب ودفعها إلى التغيير من حياتها البسيطة، حيث غادرت الحياة البسيطة غير المعقدة إلى حياة أكثر تطورًا، لكن من الذى زرع فى هؤلاء البسطاء قوة الإرادة والعزيمة؟ إن هذا لا يتولد من فراغ، إذ لابد من وجود راعٍ متمكّن يمتلك أدواته والقدرة على التأثير وصواب الرأى والتمكن من اتخاذ القرار الصائب. وقد وهب اللـهُ المغولَ بالفعل قائدًا تميز بالذكاء الحاد والشدة وعدم اليأس، والقدرة على مواجهة المواقف الصعبة. لقد صنعته المواقف الصعبة التى تعرَّض لها فى حياته منذ أن فقد والده وتحالفت الظروف عليه، وكان عليه أن يقبل التحدى، وإلا فالحياة الذليلة تكون قَدَرَه.. فهل يقبل «تيموجين بن يسوكـاى بهـادر» الذِّلَّةَ والمهانـةَ وهو ابن زعيم قبيلة "قيات"؟.. لقد امتلك الطفل «تيموجين» عزيمة أقوى من الفولاذ، وقدرة تحمُّل عظيمة، وحيكت ضده مئات المؤامرات ومحاولات القتل، وكان فى كل مرة يخرج أقوى من سابقتها، حتى اشتد عوده. وحين ذلك أعلن عن نفسه، متحديًا كل من يجرؤ على الوقوف فى طريقه أويسعى لعرقلة طموحاته.

وللأسف، خلقت المعاناة التى تعرض لها «تيموجين» فى حياته إنسانًا حاقدًا على العالم، يحاول أن ينتقم من الكل، مع أنه من المفترض أن يكون مَن هومثله عطوفًا حنونًا، يعرف معنى المعاناة التى تعرّض لها، ولا يحاول أن يصدّرها للشعوب.

لقد تميز مؤسس هذه الإمبراطورية بالحنكة السياسية والمهارة العسكرية، فنجح فى توحيد القبائل البدوية المغولية ـ التركية المتصارعة فيما بينها.




مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

[1]

التعريف بالمغُول


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

قبل أن نتناول حياة الشعب المغولى، يجب أن نعرّف القارئ بالمغول.

فالمغول شعوب بدوية كانت مقسمة إلى طوائف وقبائل متفرقة، وكانت تقطن إقليم 'منغوليا' الذى هو جزء من آسيا الوسطى والشرقية، وكانت حينَ ذاكَ قبائل بدائية لا تعرف حتى البدايات الأولى عن الحضارة.. وإنْ جاز لنا التعبير، نقول عنها إنها كانت قبائل شبه وحشية، إذ لم يكتب للمدنية أن تغزوها نظرًا لشدة بداوتها. وكانت كل قبيلة من هذه القبائل تتمسك بوحدة الجنس واللغة حفاظًا منهاعلى ترابطها العصبى، وكان كل زعيم من زعماء تلك القبائل يلقَّب "نويان"، ويطيعه كل أفراد القبيلة ويأتمرون بأمره، وينفذون ما يمليه عليهم من أوامر دون نقاش.

وأما أسلوب حياتهم فبسيط للغاية دون أدنى تعقيد، إذ لم يكن يشغلهم شاغل إلا توفير منابع المياه والمراعى حفاظًا على حياة أنعامهم، وكثيرًا ما كانت تنشب صراعات بينهم من أجل الفوز بالمراعى الخصبة.

ولا ريب فى أننا بحاجة لكشف النقاب عن حياة الشعب المغولى؛ حتى يمكن التعرف على سمات هذه القبائل التى كانت تدار من خلال منظومة مُحْكَمَة وفقًا لقانون صارم؛ وذلك حتى تستقيم الحياة فيها ولا يحدث أدنى خلل، لأنه ليس من المتخيل أن يخرج «جنكيز خان» على رأس القبائل المغولية، وينجح فى تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف تُحْسَب فى عداد كبرى الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ من حيث اتساع المساحة، دون أن تدار بنظام وتُحْكَم بقانون، وإلا ما صعدت إلى قمة المجد وحققت ازدهارًا من خلال تلك الفتوحات الحافلة.

وعند الحديث عن المغول نقول: لقد تمتع المغول بالحنكة السياسية ولم ينغلقوا على أنفسهم، بل إنهم صاغوا علاقات مع العديد من الشعوب مثل العرب والأتراك والصينيين والفُرْس، وكذلك الأوروبيين.

وعلاوةً على ذلك، تمتع المغول بمهارة فى فنون القتال وإدارة الرعية وتسييس الشعوب المغلوبة، ومن الطبيعى أن يكون ذلك ثمرة الانتصارات والفتوح العظيمة المتتالية.

موطن المغول

أما موطن القبائل المغولية، فقد استوطنت القبائل المغولية فى مستهل القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى - مناطق هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبى، بين بحيرة بايكال فى

الغرب، وجبال خنجان على حدود منشوريا فى الشرق والمناطق الجبلية المحيطة بها، ومن أشهرها جبال خنجان التى تعد حاجزًا طبيعيا بين الأقاليم الصينية الحارة والمناطق الباردة فى سيبريا. واستقرت القبائل المغولية فى المنطقة الواقعة من سور الصين العظيم جنوبًا إلى بحيرة بايكال شمالًا، وفى الجنوب الشرقى لهضبة منغوليا حيث تقع صحراء جوبى القاحلة.

لقد كتبت الظروف القاسية على سكان هذه البلاد أن يعيشوا حياة رعوية شاقة، وأن يتنقلوا من مكان إلى آخر بحثًا عن مراعى العشب وينابيع المياه، ولم يعرف الشعب المغولى كغيره من شعوب المنطقة الحياة المستقرة، فقد كان لا يستقر فى مكان بعينه. ومن هنا نجد أن المغولى بطبعه كانت لا تستهويه حرفة الفِلَاحَة. وعلى الرغم من أن الظروف كانت مهيأة لبعضهم أن يحترف حرفة الزراعة، إلا أنه أبى على نفسه أن يشتغل بها. وكان المغول يهجرون مناطقهم فى السهول خلال فصل الصيف ويقيمون فى المناطق الجبلية، فلا يتركونها إلا عندما ينعدم العشب فيها، فيضطرون إلى النزول من الجبال مرة أخرى بحثًا عن أعلاف حيواناتهم. ومع ذلك فقد نشأت بعض مناطق آهلة بالسكان قامت على أطرافها زراعات، وكانت تقطنها فئات من البدو، إلى جانب فئات أخرى حضارية تقيم فى بعض القرى، ولذلك ظهر التفاوت فى المستوى الحضارى بين القبائل المغولية، وانعكس ذلك فى سلوكهم وتعاملهم مع الآخر.

أهم المناطق المغولية

1. حوض بحيرة بالخاش، وتوجد فى وسطه جبال "تيان شان" و"كوين لن" وهضبة التبت وبحيرة آرال. وهو موطن طوائف مختلفة من الأتراك والجنس الأصفر.

2. المناطق الواقعة بين جبال "سايان" و"آلتاى" و"خينكان"، وهى تعد ـ من الناحية الجغرافية ـ من أقسى المناطق المعيشية فى كافة مناطق آسيا الوسطى والشرقية. وتعيش فيها قبائل من المغول والجنس الأصفر والتتار.

المُناخ فى هضبة منغوليا

يعتبر مُناخ هضبة منغوليا مُناخًا قاسيا للغاية، بل إنه يعد من أقسى أنواع المناخ فى العالم، حيث تبلغ درجات الحرارة والبرودة فيه النهايات العظمى، كما أنه شديد الجفاف، حيث تبلغ درجات برودته فى الشتاء 58° تحت الصفر، وتصل درجة حرارته فى الصيف إلى 60° مئوية. وعلاوةً على ذلك، ومما يزيد فى قسوة المناخ هناك، أن الرياح تهب على مدار السنة وتحمل معها الحصى وتنقله إلى مسافات بعيدة، ولذلك فقد كانت مواجهة الرياح بتلك المناطق من الأمور المتعسرة للغاية، حتى فى أواسط فصل الصيف. وفى فصل الشتاء يتكاثف الجليد بكميات كبيرة، وليس هذا فحسب، بل كانت تهب عواصف شديدة مدمرة يمكنها أن تقضى على حياة الكثير من السكان.

وإضافةً إلى ذلك، حجبت الجبال المحيطة بهذه الهضبة الرياحَ الدافئة الممطرة فى فصل الصيف، كما تعمل على زيادة البرودة الشديدة فى فصل الشتاء. ومن ثم فقد كانت حياة المغول صعبة للغاية، ولهذا عمل القريبون من المراعى بمهنة الرعى، على حين عمل بعضهم الآخر بصيد الأسماك من الأنهار والحيوانات من الغابات، كما عمل بعضهم فى صنع الزحافات من الأخشاب أو من عظام الحيوانات. وبرز اهتمامهم الخاص بصيد حيوان السَّمُّور نظرًا لفرائه الثمين، واهتموا كذلك بمطاردة الظِّبَاء وقَنْصِها بواسطة الحِبَال أو النِّبَال.

القبائل التى انحازت إلى جانب «جنكيز خان»

1. **قبيلة "قيات"**: وهى القبيلة التى تَزَعَّمَها «يسوكاى بهادر» والد «جنكيز خان»، وهو خان القبيلة التى كانت تعتنق ديانة وثنية تُعرف بـ "الشامانية"، وهى القبيلة التى وُلد وترعرع فيها «جنكيز خان» مؤسس الإمبراطورية المغولية وخان القبيلة. وقد تبوأت القبيلة مكانة رفيعة ـ رغم قلة عدد أفرادها ـ بفضل حكمة «جنكيز خان» وحسن قيادته للشعب المغولى.

2. **قبيلة "أويرات"**: وهى قبيلة كانت تقطن المنطقةَ الواقعةَ بين نهر أونن وبحيرة بايكال، ويتحدث أفرادها بلغة مختلفة عن لغة الطوائف المغولية الأخرى. وقد امتازت هذه القبيلة بكثرة أفرادها، وكان لهم ملك يأتمرون بأمره. وفى بداية الأمر، كانت القبيلة تتخذ موقفًا عدائيًّا من «جنكيز خان»، حتى تمكن من

«كورياكوس بن ميرجوز خان»، ولكن هذا الملك توفى سنةَ 1270م، وكان من المفترض أن يؤول الملك إلى ابنه «طغرل»، إلا أن أعمامه وإخوته حالوا دون وصوله إلى حقه فى الجلوس على كرسى المُلْك، فلم يجد «طغرل» بُدًّا من الاستنجاد بـ «يسوكاى بهادر» ـ والد «جنكيز خان» ـ حتى يقدم إليه العون فى الوصول إلى حقه فى الحكم، وقد هب «يسوكاى بهادر» إلى نجدة «طغرل» حتى تمكن من الانتصار على خصومه واستعادة عرشه.

وبعد أن جلس «طغرل» على كرسى المُلْك، استعان به إمبراطور الصين «كين» فى حروبه ضد التتار، وقد نجح «طغرل» فى إلحاق الهزيمة بالتتار، وبعد أن حقق النصرعليهم أصبح أقوى ملك ورئيس قبيلة فى منغوليا، ولذلك أنعم عليه إمبراطور الصين بلقب "وانج" تقديرًا منه للدور الذى أداه فى تأديب التتار، ولهذا عُرف «طغرل» فى التاريخ بلقبيه الصينى والمغولى: «وانج خان».

5. قبائل "الماركييت": توطنت قبائل الماركييت فى المناطق الواقعة شمال الكرايت على مجرى نهر سلنجا وجنوبى بحيرة بايكال، وكان لديها جيش قوى، ويعد أفرادها من المقاتلين الأشداء، وعُرف عنهم أنهم من مثيرى الشغب والفتن، ودخل معهم «جنكيز خان» معارك متعددة وحروبًا شرسة استخدم فيها أقسى أساليب العنف والشدة، حتى تمكن فى النهاية من إبادتهم، فلم يَنْجُ من سيوفه إلا القليل منهم.

إخضاعها، ثم تزوج منها.. وأدى رباط المصاهرة دوره فى إنهاء حالة العداء، فصارت قبيلة "أويرات" من أهم القبائل التى أدت دورًا فعّالًا بعدُ فى بسط نفوذ «جنكيز خان».

3. **قبائل "النايمان"**: وهى قبائل بدوية من الجنس التركى، غلب عليها الطابع المغولى. وكانت هذه القبائل تقطن الحوض الأعلى لنهر أرخون، وسفوح جبال آلتاى، وما حول البحيرات الواقعة فى تلك المناطق. وكانت تملك كل غرب منغوليا ابتداءً من شمال نهر أرخون إلى نهر أرتيش. وكان أفرادها من البدو الرحل الذين يقيم بعضهم فى المناطق الوعرة، وبعضهم الآخر فى الصحارى. وقد سيطرت هذه القبائل على غرب منغوليا. وكان أفرادها يعتنقون الديانة المسيحية على المذهب النسطورى الذى انتقل إليها من بلاد الشام. واكتسبت هذه القبائل ثقافتها من الأويغور، وكانت تتحدث باللغة المغولية. وقد كان ملوك النايمان أصحاب شهرة واسعة ونفوذ قوى، ويطلق على ملوكهم لقب "كوجلوك خان"؛ أى الملك القوى.. أو "بويروق خان"؛ أى مُصْدِر الأمر. وتعد ثقافة النايمان أرقى أنواع الثقافات التركية فى ذلك الوقت.

4. **قبائل "الكرايت"**: استوطنت هذه القبائل المناطق الممتدة من الواحات الشرقية فى الصحراء وجنوب بحيرة بايكال، حتى سور الصين العظيم. وكانت تعتنق الديانة المسيحية على المذهب النسطورى. وكانت قبائل قوية مرهوبة الجانب، يحكمها الملك

6. قبائل "التتار": وهم طوائف كثيرة العدد، تتكون من قبائل كبيرة تتشعب إلى شُعَب قَبَلية عديدة. وكان موطن هذه القبائل فى المناطق الواقعة شمالَ نهرى أرخون وسلنجا ومملكة القرغيز، وغربًا فى ممالك الأويغور، وجنوبًا بإقليم التبت. وبصفة عامة، كان التتر يقيمون فى الجنوب الغربى من بحيرة بايكال حتى كيرولين. وقد ارتبط التتار بعلاقات طيبة مع المسلمين، حتى إن بعضهم اعتنق الإسلام. وكانت القبائل التترية من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشًا فى أقاليم آسيا الشمالية، كما كانت هذه القبائل تعيش حياة رفاهية وثراء فاحش على الساحة السياسية والعالمية قبل ظهور «جنكيز خان»؛ إذ نجح التتار فى فرض نفوذهم الواسع على أغلب قبائل الجنس الأصفر البدوية، وكان الجميع يخشون بأسهم. ولا يزال اسم "التتر" يطلق عمومًا على أبناء الجنس الأصفر.

وعندما ظهر نجم «جنكيز خان» فى سماء الساحة السياسية، كان يُضْمِر داخله حقدًا دفينًا نتج عن العداء المتوارث بين التتار والمغول، فاتخذ «جنكيز خان» موقف الحذر منهم لأنهم كانوا أعداءه، كما كانوا أعداء آبائه وأجداده من قبل. وبعد أن فرغ من القضاء على القبائل الأخرى المناوئة له، كان يضع ضمن حساباته محاربة التتار، فجهز جيشه تجهيزًا محكمًا، وزوّده بأفضل الأسلحة، وعَقَد النية على استئصالهم من الوجود نهائيا؛ فلقد كان «جنكيز خان» على قناعة تامة بأن التتار حَمَلَة عوامل الفتنة والفساد المتوارث.

وبعد أن نجح فى كسر شوكتهم، قرر أن يبقر بطون نسائهم الحوامل حتى ينقطع أى نَسْل قادم لهم، فقتل النساء والأطفال الرُّضَّع ولم تأخذه بهم أى شفقة أو رحمة. ومع ذلك، أقبل كثير من المغول على الزواج من النساء التتريات، وبذلك تَوَلَّد جيل جديد يحمل الجينات الوراثية للجنسين المغولى والتترى، وتَشَكَّل منه فيما بعد القادة والزعماء.

ومن الغريب أن يطلق الناس اسم **التتار على المغول**، رغم أن **التتار قبائل مغايرة تمامًا للمغول!**

وبعد أن نجح «جنكيز خان» فى استئصال شأفة التتار، بدأ يستعد لغزو العالم الإسلامى.

7. الأتراك الأويغوريون: وكانوا يستوطنون المناطق الواقعة فى شمال شرق التركستان الحالية. ورغم أفول نجمهم السياسى، إلا أنهم أدوا دورًا حضاريًا وثقافيًا فى دولة المغول؛ فقد عَهِدَ «جنكيز خان» إلى الأويغوريين بتأديب أولاده، حتى صار لهم مكان فى دواوين الحكم عند المغول. وكان الأويغوريون قد كُلِّفُوا من قِبَل «جنكيز خان» بكتابة "الياسا"، وهو القانون الذى وضعه «جنكيز خان». كما كان الخط الأويغورى هو الخط المتعامل به فى إدارة الإمبراطورية المغولية.

8. الأتراك القراخطائيون: وكانت دولتهم كبيرة قبل الغزو المغولى، حيث كانت تقع بين مملكة الخوارزميين فى الغرب،

ومناطق نفوذ المغول فى الشرق. وكان ساحل نهر سيحون يعتبر الحد الفاصل بين مملكة القراخطائيين وإقليم الدولة الخوارزمية.

وترجع أصول قبائل الخطا إلى مناطق شمال الصين. وقد ظهر من بينهم زعيم قوى أخضع هذه القبائل لنفوذه، ونَصَّبَ نفسه إمبراطورًا عليهم من سنة 916 إلى 927 م، وسَمَّى نفسه «تاسو». وتمكن بعد تولِّى الزعامة من أن يخضع شمال بلاد الصين. وتَلَقَّبَتْ أسرته باسم «لياءُو»، واستمرت تحكم الصين نحو قرنين من الزمان (من سنة 916 إلى 1125 م).

9. قبائل القرغيز: وهم من الترك أيضًا. وكانوا يقطنون أعالى نهر ينيسى. واتخذ أميرُهم لقب "خاقان" فى القرن الثامن (نقش أرخون)، غير أنهم لم يشتهروا سياسيًّا إلا فى حوالى سنة 1144 م عندما نجحوا فى انتزاع أراضى الأويغور فى منغوليا، فامتدت حدود بلادهم حتى المحيط. ولكن لم يلبث الخطا أن طردوهم من منغوليا فى أوائل القرن العاشر الميلادى، ومع هذا فقد تمكن أغلبهم من الاحتفاظ بمنازلهم فى أعالى نهر ينيسى، ولذا كان على الخطا أن يقاتلوا القرغيز الذين احترفوا الزراعة. ثم خضع القرغيز للمغول آخرَ الأمر زمنَ «جنكيز خان» سنة 1218 م.

الحياة الاجتماعية للمغول

المغول قبائل بدوية، تحكمها عاداتٌ وأعرافٌ اجتماعيةٌ وقوانين، ويخضعون إلى رئيس القبيلة أو الطائفة، فيأتمرون بأمره، ويطيعونه

قوتها. والمرأة التى تنجب أولادًا أكثر، تحظى بتقدير أكبر. ولم يكن القانون المغولى يقف حائلًا أمام تعدد الزوجات، فكل على قدر ثرائه؛ حتى لقد قيل إن «جنكيز خان» تزوج أكثر من خمسمئة امرأة، ولكنه كان يؤْثِر خمسًا منهن فقط!.. وكان الابن يستولى على زوجات أبيه ـ فيما عدا أمه ـ وذلك لأن منزلة الأب والأم تئول إلى الابن الأصغر، ومن ثم فإن من واجبه أن يشرف على أرامل أبيه ويرعاهن. ولم يكن هناك فارق فى توزيع الميراث بين الأبناء، سواء أبناء الزوجات النبيلات أو أبناء الإماء والجوارى، ولم تكن توجد حواجز بين زواج أى مغولى من الفتاة التى يرغب فى الاقتران منها.

وقد اتخذت القوانين التى تحكم الحياة فى القبيلة المغولية قبل تكوين الإمبراطورية طابع القسوة؛ لأن الدولة إذ ذاك كانت فَتِية، والحزم كان مطلوبًا لحفظ الأمن فى الداخل، ومواجهة الأعداء فى الخارج، وهى القوانين التى أقرها «جنكيز خان» وأضاف إليها الكثير حتى تتناسب مع مكانة المغولى فى البلاد التى يفتحها.

وكانت القوانين تقضى بالموت على مرتكب جريمة الزنا، أو قاطع الطريق، أو مَن يمارس السحر والشعوذة، أو يقوم بأعمال التجسس.

وكان المغول ـ مثلهم مثل الشعوب البدائية القديمة ـ يدِينُون بديانة وثنية تُعرف بـ "الشامانية"، ثم اعتنقوا بعد ذلك الديانة البوذية.

طاعةً عمياء. وكانت حياتهم تتفق مع بداوتهم والظروف الصعبة التى يعيشون فيها، إذ كانوا «فرسانًا رُحَّلَ يعيشون فى الخيام».

وقد قرر المؤرخ «هوارث» فى كتابه عن 'تاريخ المغول'، أن المغول كانوا يعتمدون فى طعامهم بشكل أساسى على لحوم الخيل وشُرْب ألبانها، ولم يمتنعوا كذلك عن أكل لحوم الحيوانات الأخرى، مثل الذئاب والكلاب والثعالب والأرانب والفئران، وأكلوا حتى الميت منها، ولم يكونوا يتورعون عن أكل لحوم أعدائهم من البشر، وشرب دمائهم أيضًا!

وكانت حرفتُهم الرئيسية الرعىَ والصيدَ إلى أن تنشب الحروب، فيتأهب الجميع لخوض القتال. وكانوا فى فصل الشتاء يهجرون مواطنهم إلى أماكن مناسبة حتى تذوب الثلوج، فيرجعون إليها مرة أخرى. وقد اكتسبوا مهارة خاصة فى تجفيف اللحوم دون أن يطولها الفساد أو التعفن. وصنعوا الجبن والزبد من ألبان البقر والغنم والأفراس.

أما بالنسبة للملابس التى كان يرتديها المغول، فقد كانت بسيطة للغاية بما يتناسب مع طبيعة حياتهم البدوية، وكانوا يصنعونها من أصواف الغنم ووبر الإبل، ولم تكن ثمة فروق واضحة بين ملابس النساء وملابس الرجال.

وليس من شك أن اتصالهم بالصينيين فى الشرق، والمسلمين فى الغرب، قد أسهم فى تهذيب سلوكهم، وإكسابهم عادات جديدة

جعلتهم يغيرون من نوعية ثيابهم عما كانت عليه من قبل، حتى إن بعض المؤرخين ذكروا أنهم رأوا المغول يلبسون الحرير والفراء، كما تزينت نساءهم بالجواهر، وكان ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى. لقد نجحوا فى تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف، وظهرت عليهم آثار الثراء، واستوردوا الحرير والفراء الثمين من الصين وروسيا والبلاد الأوروبية، وغيرها من الدول الخاضعة لنفوذهم. ولم تكن خيام المغول أحسن حالًا من خيام غيرهم من البدو الرُّحَّل، حيث كانت هذه الخيام تُصنع من الصوف، وكان سقفها يصنع على شكل نصف قوس حتى لا تؤثر فيها شدة الرياح، وهى تختلف فى ذلك عن خيام القبائل الأخرى التى يكون سقفها مدببًا. وكانت أبواب الخيام تتجه ناحية الجنوب؛ تجنبًا للرياح العنيفة القادمة من الشمال والغرب. أما ترتيب الخيمة من الداخل فكان بسيطًا للغاية، ولم يكن صاحب الخيمة يضع داخلها إلا ما يحتاج إليه فى حياته المعيشية، علاوةً على تعليق سلاحه ليكون جاهزًا للمهام القتالية. وكانت لهم قوانين وأعراف وتقاليد فى الحياة الأسرية رغم بساطة هذه الحياة، إلا أن الزواج كان عبارة عن عملية تجارية بحتة، إذ لم يكن المغولى يتزوج إلا بعد أن يشترى المرأة التى سوف يتزوجها!.. ولا يعترف المغولى بالزوجة إلا بعد أن تنجب طفلًا، أما إذا كانت عاقرًا فإنه يطردها، ولا يقدم مهرًا لزوجته إلا بعد الإنجاب. وقد كانوا يشجعون على الإنجاب ليزداد عدد أفراد القبيلة؛ لأن هذا يسهم فى تقوية شأنها ويزيد من

وكانوا يصنعون أشكالًا على هيئة الإنسان من الصوف؛ ظنًّا منهم أنها تبعد عنهم الشر!

وقد احتل رجال الدين عند المغول مكانة رفيعة؛ فقد كانوا فى نظر الشعب مجموعة من المسيطرين على علم الفلك، وقادرين على تحديد متى يكون الكسوف أو الخسوف، وكذلك تحديد الأيام الصالحة أوغير الصالحة للعمل. وكان المغول لا يقبلون على فعل شىء دون استشارة رجال الدين، سواء كان العمل مدنيا أوعسكريا.

صفات المغول

تميز المغول بثلاث صفات دون غيرهم من الشعوب، وذلك بسبب الظروف المعيشية الصعبة التى كانوا يعيشوا فيها، وكانت على النحو التالى:

- الأولى: **صفة جسدية**، وهى المتمثلة فى الرأس الكبير، والوجه العريض، والأسنان القوية، والعنق القصير، وقصر القامة، والبشرة الصفراء.

- الثانية: **صفة أخلاقية**، حيث اكتسبوا الشراسة بسبب معيشتهم الصعبة وسط قبائل أكثر منهم عتادًا وعددًا، فدفعهم هذا إلى التدرب على مواجهة القسوة، والإصرار على البقاء رغم كافة الصعاب. واكتسبوا من البيئة فن التعامل مع الآخر.

ـ الثالثة: صفة حربية، فقد كان المغول فرسانًا بطبيعتهم، وكانوا ـ على اختلاف المراحل العمرية ـ يقضون حياتهم على ظهور الخيول، ولا يكادون يتنقلون بقَدَم على الأرض. ولم يكن الرجال فقط هم الذين يجيدون ركوب الخيول، بل كانت النساء تملك أيضًا هذه المهارة، ويجِدْنَ التعامل مع استخدام القِسِى والسهام.

وقد كان من عادة المغولى أنه إذا ذهب إلى ميدان القتال، يحرص على حمل كل ما يحتاج إليه من المتاع والأدوات التى تعينه فى تلبية أغراضه والمهام المكلف بها. وكان الصبر صفة غالبة على الإنسان المغولى، حتى إن الطفل المغولى كانت لديه القدرة على البقاء يومين دون تناول الطعام ولا يعبّر عن جزعه، بل يحاول أن يظْهِر أمام الجميع أن هذا أمر طبيعى ولا يوهن فى عزيمته. إذن، كان للتربية على التعرّض للمصاعب وتحمّل الشدائد منذ الصغر أكبر الأثر على جعل الإنسان المغولى يتحمل مشقة الحياة، والعيش أيامًا عديدة على شرب رشفات من اللبن تجعله يقف على قدميه، ويسير مسافات طويلة على قدميه دون أن يظْهِر أى نوع من الكلل. لقد امتلك الإنسان المغولى صلابة شديدة، وعاش فى بيئة صعبة جعلته قادرًا على قبول تحديات الحياة، وإلا ما كان وصل إلى ما هو عليه من طموحات. ويمكن القول بأن المقاتل المغولى كانت لديه القدرة على البقاء عدة أيام دون طعام، فكان يكتفى فقط بما يحمله معه من اللبن ليروى به ظمأه، ويجعله قادرًا على الوقوف على قدميه، وكان التحلى بهذا الـجَلَد الشديد عاملًا مهمًّا من العوامل التى ساعدت

المغول كثيرًا فى المعارك القتالية الحامية الوطيس. وكانت شجاعة المقاتل المغولى مضربًا للأمثال، حيث كان لا يستسلم بسهولة أبدًا، بل كان يقاتل حتى آخر قطرة فى دمه، وكان يرفض الوقوع فى الأسر، حتى إن بعضهم كان يقتل نفسه كى لا يقع أسيرًا! وكانت الشجاعة هى العامل الرئيسى المهم الذى أسهم فى توطيد إمبراطورية المغول الواسعة الأطراف.

وكان المغول فى البداية يخضعون لنفوذ أسرة "كين" الصينية التى كانت تتخذ من بكين عاصمة لها، وذلك عندما كان المغول قبائل متفرقة، لا هدف لها غير توفير منابع المياه والعشب من أجل الحيوانات التى يرعونها. وبما أن دوام الحال من المحال، فقد خرج بعض المغول الذين يرفضون الخضوع لأى نفوذ أو سلطان، تحدوهم الرغبة فى الاستقلال، ومن هنا تحرك بعضهم فى موجة من موجات العصيان والتمرد على أسرة "كين" الصينية. ونجح المغول فى عصيانهم، وتمكنوا من الحصول على الاستقلال، ثم بدأ المغول فى الاستعداد القتالى والتدريب على استخدام أنواع الأسلحة المتوفرة فى ذلك العصر، وحاكوا الصينيين فى المهارة القتالية والتكتيك العسكرى، ولكن كان ينقصهم القائد الملهم الذى يستطيع صهر القبائل المغولية فى بوتقة واحدة ويشكّل منها إمبراطورية عظيمة، فينهض بشأنهم، ويقودهم إلى تحقيق أهدافهم التوسعية. وكان هذا القائد الملهم هو «تيموجين بن يسوكاى بهادر»، الذى عُرف فيما بعد باسم «جنكيز خان».

[2]

«جنكيز خان».. موحِّد القبائل المغولية





وُلد «تيموجين» (جنكيز خان) فى منغوليا سنة 1155م على الضفة اليمنى لنهر الأونون فى منطقة دولون بولداق. وكان أبوه «يسوكاى بهادر بن برتان بهادر» رئيسًا لقبيلة 'قيات'، إحدى القبائل المغولية.. وكان جميع أعمامه، وأبناء أعمامه، يطيعونه ويخضعون له، لأنهم هم الذين اختاروه رئيسًا عليهم، ولم يأتِ هذا الاختيارمن فراغ، وإنما لأنه كان يتميز بالشجاعة والإقدام، وكثيرًا ما خاض الحروب ضد التتار والخطا، فاكتسب شهرة واسعة ومهابة، وقدرة على اتخاذ القرار الصعب فى أحلك الأوقات. وقد كان أجداد «جنكيز خان» يدفعون الجزية سنويًّا فى الماضى لأباطرة الصين الشمالية، لكن «يسوكاى بهادر» أعلن رفضه الخنوع، وأبطل دفع الجزية إلى أباطرة الصين كما كان يفعل أسلافه من قبل. وكان يعتز بنفسه اعتزازًا شديدًا، وأخضع قبائل المغول لسيطرته، وعندما استفحلت قوته، وشعر أباطرة الصين بخطورة هذا الرجل، فكروا فى عمل يمكّنهم من إجهاض هذه القوة الناشئة قبل أن يتعاظم خطرها ويصير من الصعب القضاء عليه، فيصبح أمر كبحها من المستحيلات. وبالفعل، عملوا على تجهيز جماعة

خاصة، وأوعزوا إليها بالقضاء عليه، ولكن «يسوكاى بهادر» لم يكن ساذجًا يسهل التغلب عليه، فتمكن من التغلب عليهم وإخضاعهم لنفوذه. وبهذا وضع «يسوكاى بهادر» اللبنة الأولى لابنه «جنكيز خان» حتى يمضى فى مسيرته إلى الأمام.

«يسوكاى بهادر» زعيم 'قيات'

إذن، فمن هو «يسوكاى بهادر»؟

إنه شخص لا تنقصه الشجاعة، إذ يحكى أنه ذات يوم خرج يحمل صقره ليصطاد على ضفة نهر أونون، وفجأة برزت عربة تحمل شخصين من قبيلة الماركيت، وهنا قفزت فكرة مهاجمة العربة فى رأس «يسوكاى بهادر»، وقام اثنان من إخوته بمساعدته فى مطاردة العربة، وأثناء المطاردة فر الرجل لينجو بنفسه، وبقيت المرأة حيث اقتادها «يسوكاى» إلى بيته، وهى المرأة التى تدعى «أولين فوجين»، فاتخذها زوجة له، وكانت المرأة فى حالة من الذعر، ولكن لم يكن أمامها غير الخضوع والإذعان فى عالم غاب عنه القانون.

وبعد مدة قصيرة، ترك «يسوكاى بهادر» زوجته، وخرج لقتال قبائل التتار. وبعد عودته من جبهة القتال، وجد زوجته قد رُزقت طفلًا، فأطلق عليه والده اسم «تيموجين»، ولم يكن الوالد يدرك أن «تيموجين» هذا سيكون أعظم المقاتلين نجاحًا فى زمانه!

نشأ الطفل «تيموجين» على ضفاف نهر أونون، وكان يلعب مع إخوته وأقرانه، وعندما بلغ الرابعة من عمره تعلم ركوب الخيل دون سرج، وامتطاء الخيل وهو واقف على ظهورها. أما فى فصل الشتاء، فكان يلعب مع أقرانه فوق مياه النهر المتجمدة، يحمل كلٌّ منهم مجموعة من عظام كعوب أرجل الغنم ليلعب بها أو يتعارك أو يقرأ الطالع. وعندما بلغ «تيموجين» التاسعة، قرر والده أن يزوّجه، فركبا جواديْهما، وذهبا معًا الى بيت الحكيم «داى» الذى ما إن شاهد «تيموجين» حتى أبدى إعجابًا شديدًا به، وعرض عليه تزويجه بإحدى بناته.

وبقى «تيموجين» مع هذه العائلة حتى موعد الزفاف الذى سيكون بعد عدة أسابيع، ولكن حملت إليه الأخبار صدمة شديدة، كان لوَقْعها أثر كبير على مجرى حياته، حيث جاءته الأخبار بأن والده «يسوكاى بهادر» أثناء عودته إلى بيته توقف لتناول بعض الطعام، وعندما علم الأعداء بمكانه، دبروا محاولة دس السم له فى الطعام، وهو الآن مريض للغاية. وعلى الفور ترك «تيموجين» عائلة الحكيم «داى» وعاد مسرعًا للاطمئنان على والده، ولكن قبل وصول «تيموجين» إلى بيته، كان والده قد فارق الحياة منذ عدة أيام!

وبعد وفاة «يسوكاى بهادر»، لم يعد لوالدة «تيموجين» مكان فى قبيلة زوجها؛ لذلك فحين قررت القبيلة الارتحال، تركوها وحدها مع أولادها، وحين اعترض أحد الخدم المخلصين على موقف

القبيلة منها، التفت إليه رئيس القبيلة وطعنه بحربة، ثم تركه ينزف حتى الموت!

وهنا أدت الأم دورها، حيث شملت أولادها (وكانوا خمسة: ثلاثة من بنيها هي وزوجها، واثنين من زوجها فقط) بالعناية والعطف، وكان الجميع يشتركون في مهمة البحث عن الطعام من الفاكهة وجذور الأشجار التي كانت تطبخها لهم ليأكلوها، وصنع الأولاد الكبار لها إبرًا من عظام السمك والحيوانات لتَحِيكَ ملابسهم بها.

وكانت العائلة تصيد الأسماك والكلاب لتقتات بلحومها وتلبس جلودها. وسكنت العائلة في "يارت" ـ وهو اسم الخيمة المغولية ـ كانت تنصبها قرب بعض بيوت القبائل حتى لا تبقى في عزلة في تلك السهوب. ومن خلال تلك الجيرة، تعرَّف «تيموجين» على صديق يدعى «جاموكا»، كانا يصطادان سويًا ويلعبان ويتسابقان على ظهور الخيل وهما في سن يتراوح ما بين 11 و 12 سنة، فصار «تيموجين» و«جاموكا» "إخوة دم"، حيث تعاهدا على الصداقة والإخلاص الكامل، ثم جرحا نفسيْهما، وقام كلُّ واحد منهما بشرب قطرات من دم قرينه. ونجح «تيموجين» بقوة شخصيته، وبما يتحلى به من ذكاء، في تكوين أصدقاء بكل بسهولة، وتمكّن أيضًا من كسب أعداء. وبعد وفاة الأب، بدأ النزاع يدب داخل الأسرة بين أبنائه حول قيادة العائلة من بعده، وكان أكبرهم ـ ويدعى «بختيار» ـ قد سَطَا ذات مرة على

طير اصطاده «تيموجين»، كما سطا مرة أخرى على سمكة، وعند ذلك احتج «تيموجين» وشَكَا أخاه عند والدته، لكنها وبخته قائلة: «ينبغى على العائلة أن تتحد لأنه ليس لها عائل تعتمد عليه»، لكن «تيموجين» ظل متذمرًا، ثم أقنع أحد إخوته بالتآمر معه لقتل شقيقهما «بختيار»، وهكذا تم استدراج «بختيار» إلى مكان بعيد، فأطلق الأخوان سهمين على شقيقهما وتركاه ينزف حتى الموت على الحشائش. وعند عودة الولدين إلى خيمتهما، صرخت الأم بغضب حين عرفت بجريمتهما التى ارتكباها، وقالت إن أولادها يشبهون كلاب البرية أو الضباع أو الوحوش، وإنه لن يبقى لهم صاحب غير ظِلِّهم.

إذن، فقد أثبت «تيموجين» منذ صغره أنه شخص مخلص لأصدقائه، ولكنه عديم الرحمة مع أعدائه!

وبعد فترة قصيرة من قتله «بختيار»، كان عليه أن يدافع عن سمعة قوته، وخصوصًا بعد أن نجحت مجموعة من مقاتلى قبيلة "تايجيو" فى أسره، حيث قامت بإغلاق نِـير خشبى عليه، وهو آلة ثقيلة جدًّا تُقْفَل على الرقبة، فلا يعود المرء قادرًا على الحركة، وجعلوا الخدم يراقبونه بالتناوب، وكانوا ينقلونه كل مساء إلى خيمة مختلفة لإتمام مهمتهم.

تَـحَيَّنَ «تيموجين» فرصة للهروب من الخيمة، وعندما سنحت له لم يدخر وقتًا لاستثمارها. وجاءت الفرصة عندما احتفل الحراس بإحدى المناسبات، وكانوا سُكَارَى، فقام «تيموجين»

بضرب حارسه على رأسه بطرف النِّير الخشبى، ثم فر هاربًا من الخيمة، واختفى خلف الأعشاب الطويلة الكثيفة عند ضفة النهر. وبدأت عملية البحث عنه فى كل مكان، حتى تمكن رجل مُسِن يعمل خادمًا فى أحد الخيام من العثور عليه، ورَقَّ هذا الرجل لحاله، فلم يُلْقِ القبض عليه. وحين حَلَّ الليل، توجه «تيموجين» إلى الخيمة التى يقيم فيها هذا الرجل الذى أكرمه كى يساعده فى كسر النير الغليظ الذى وُضع على عنقه، وزاد الرجل من حفاوته، حيث قدم له الطعام، وبذلك أصبح «تيموجين» حرًّا طليقًا، وتوجه إلى خيمة أسرته.

كانت تلك أول معركة يدخلها «تيموجين» مع قبيلة غريبة عنه وهو لم يزل بعدُ حَدَثًا، لكنه تَدَبَّرَ أمره بذكاء وشجاعة، فكان يبدو فى أعين الناس وكأنه قائد!

وعندما بلغ السادسة عشرة من العمر قرر أن يتزوج، فعاد إلى بيت خطيبته «بورت» ليبحث عنها، واندهشت عائلتها لمرأى الصبى الذى خطب ابنتهم قبل 7 سنوات، فقد صار رجلًا الآن، وأسعدتهم عودته وحفظه لعهده معهم، فوافقوا على الزواج، وأهدوا «تيموجين» معطفًا مصنوعًا من فِرَاء السمُّور كهدية للزواج، فعاد فخورًا إلى خيمته مع عروسه الجديدة، التى بوجودها معه لم يعد وحيدًا، وصار يسعى إلى تكوين حياته الأسرية بشكل جيد.

كانت تسكن فى الغرب قبيلة "كيرايت" المسيحية، وكانت من أكثر قبائل المغول ثراءً لأنها تقيم علاقات تجارية واسعة مع الكثير من مدن وسط آسيا الثرية. وكان زعيم هذه القبيلة رجلًا يدعى «طغرل»، يعيش فى "يارت" مصنوعة من ذهب مغزول، وأهله يأكلون فى آنية من ذهب. ولزواج أميرة من هذه القبيلة، كان على المرء أن يقدم 200 خادم كهدية!

ولم يكن أمام «طغرل» غير خيار صعب لا بديل عـنه بالنسبـة لـ «تيموجين»، فكان عليه أن يثق به، رغم أن «طغرل» ارتكب من قبل جريمة شنعاء تمثلت فى قتل إخوته حتى يتمكن من حكم قبيلة "كيرايت". لكن، كيف جاءت إليه الثقة فى «تيموجين»؟ جاءت هذه الثقة لأن والد «تيموجين» كانت له "أخوّة دم" مع «طغرل» .

ترك «تيموجين» عروسه فى البيت، ورافق اثنيْن من إخوته لزيارة «طغرل»، وقدموا له هدية هى معطف السمور الذى تسلمه «تيموجين» هديةَ عُرْسٍ من أهل زوجته، وقالوا له إنهم يعتبرونه بمثابة والدهم لأنه أخو دم لوالدهم الحقيقى. وقد تَقَبَّلَ «طغرل» الهدية بسعادة.

وبدأ «تيموجين» يكسب الناس من خلال هذا التحالف مع «طغرل»، حيث قَدِمَ للعيش معه شخص يدعى «بورجو» كان قد ساعده قبل سنوات فى رد قيمة خيول قاما بسرقتها، كما قدم شخص يدعى «جيلمو» اتخذه «تيموجين» خادمًا له.

ولكن رغم تعاظم قوة «تيموجين»، إلا أن جماعته بقيت صغيرة، وكان لديها الكثير من الأعداء، وبالتحديد قبيلة "الماركيت".. أخواله ـ أهل والدته ـ التى خطفها منهم والده «يسوكاى» عندما كانت مسافرة مع زوجها الأول قبل 17 عامًا.

وذات يوم هاجمت قبيلة "الماركيت" رجال «تيموجين»، ففر الرجال إلى مناطق بعيدة، وتركوا الأم وزوجة «تيموجين» مع الخدم ليختبئا فى مكان آخر.

ولكن حين تم العثور على المرأتيْن، قام المهاجمون بأخذ «بورت» ـ زوجة «تيموجين» ـ أسيرة؛ انتقامًا لما لحقهم من أذى من قِبَل والده. وحين ذهبوا، خرج «تيموجين» من مخبئه، لكن زوجته كانت قد ذهبت.

ها هى الآلهة قد أنجته من الموت للمرة الثانية، ومن ثم وجب عليه أن يذهب إلى جبل يعرف بـ "ورخان خلدن" حتى يؤدى الصلاة إلى الشمس. واتخذ قرارًا بالانسحاب إلى غابات نهر أونون ليحمى نفسه من أعدائه ـ قبيلتى "التايجيو" و"الماركيت" - وأصبح مطالبًا منذ ذلك اليوم بتوديع حياة اللهو بعد انقضاء مرحلة الصبا، فها هو الآن قد دخل إلى معترك الرجولة والحياة الصعبة.

وافق «طغرل» مباشرة على تزويد تيموجين بـ 20 ألف مقاتل لمهاجمة قبيلة "الماركيت"، كما زوَّده أخوه فى الدم «جاموكا» بـ 20

ألفًا آخرين، وكان «تيموجين» لم يَلْتَقْهُ منذ عدة سنوات، حيث بعث إليه «تيموجين» بأمر خطف زوجته، الأمر الذى أدى إلى انكسار قلبه ومطالبته بالمساعدة ليعمر قلبه من جديد.

أحزن هذا الخبر «جاموكا»، فرد على الفور بتقديم المساعدة المطلوبة لصديقه؛ لأنه هو أيضًا كان يكره قبيلة "الماركيت". واتحدت القوتان وهاجمتا قبيلة "الماركيت"، واستعاد «تيموجين» زوجته التى كان "الماركيت" قد زَوَّجُوها إلى أخى زوج أم «تيموجين» الأول كنوع من الانتقام لما سبق أن قام به «يسوكاى بهادر» والد «تيموجين» بخطف أمه. وبعد انتهاء المعركة، دخل «تيموجين» وجماعته فى قبيلة «جاموكا» وصاروا منهم، وأقيم احتفالٌ بهذه المناسبة، وتبادلَا هدايا من الذهب، وخيولًا أصيلة كذلك.

أمضى «تيموجين» و«جاموكا» السنة ونصف السنة التالية معًا، حيث ازداد عدد أتباعهما، وأنجبت «بورت» له ابنًا، يُعتبر والده الحقيقى من قبيلة "الماركيت"، لكن «تيموجين» تَقَبَّلَهُ وعامله على أنه ابنه الذى من صُلبه.

ولم يكن وضع «جاموكا» كقائد لهذه المجموعة موضع تساؤل، إذ بقى «تيموجين» كتابع له حتى سنة 1181م، ثم انفصمت عُرَى هذه الصداقة، لأن «جاموكا» توقف عن معاملة «تيموجين» كنِدٍّ له..

فذات يوم، أمرَ «جاموكا» «تيموجينَ» بأن يخيم فى منطقة منفصلة عن قبيلته قرب بيوت الغنم والماعز، فشعر «تيموجين» بإهانة بالغة من جراء ذلك، وذهب إلى والدته ليستشيرها فى هذا الأمر، طالبًا منها أن تقدم إليه النصيحة، وماذا يمكن أن يفعل حيال هذا الموقف الجديد من صديقه «جاموكا»؟.. فقالت الأم : إن «جاموكا» لم يعد مرتاحًا لوجودنا فى دياره، وهذا يعنى أن وقت الرحيل قد آن، وعلينا أن نبادر بمغادرة هذا المكان فى وقت قريب حتى لا يحدث ما لا تُـحْمَد عقباه.

وغادر «تيموجين» هذه المنطقة بعد أن انفصمت عُرَى الصداقة بينه وبين صديقه السابق «جاموكا»، وعند مغادرة «تيموجين» ديار «جاموكا»، حدثت مفارقة غريبة، حيث انضم إليه عند مغادرته المكان عدد كبير من أتباع «جاموكا»، وأصبحوا تحت لواء «تيموجين»، ومن هنا بدأت تتشكل قبيلة خاصة لـ «تيموجين»، فأصبح هذا الفتى بعد سنوات من الطرد والعزلة زعيم قبيلة!

وللأسف، فقد أصبح أصدقاء الأمس أعداء اليوم، حيث امتدت المنافسة والصراع بين «تيموجين» و«جاموكا» إلى ما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، وكانت جيوشهما تتقاتل عند السهوب، وأحيانًا كانا يتبادلان خطف بعض النساء والخيول. والنهاية الحتمية لأى صراع أن يتمكن طرف من الانتصار على الطرف الآخر، فتئول زعامة المغول إليه.

وقد تمكَّن «تيموجين»، بخطوات ثابتة وثقة بالنفس، من أن يشكِّل قوات أكبر تدين له بالولاء الكامل، فقد كان سَخِيًّا جدًّا وكريمًا على أتباعه، ينفق عليهم الأموال والذهب، ويقدم لهم الجِيَاد، لذلك نمت قوته بصورة كبيرة، وازداد إصرارًا على مواصلة تحقيق الأهداف المطلوبة منه. كما أن رجال الدين المغولى (الشامان) انحازوا إلى جانب «تيموجين» وأيدوه، حتى إن واحدًا منهم زَعَمَ أن الرب يحب «تيموجين»!.. كما زعم "شامان" آخر يدعى «كرجى» أنه رأى ثورًا ينطق بالقول: إن السماء والأرض تتفقان على أن «تيموجين» ينبغى أن يكون كبير هذه الإمبراطورية!.. كما زعم "شامان" ثالث أنْ كَلَّمَهُ الرب قائلًا: أنا منحت كل الأرض لـ «تيموجين» وأولاده!.. وكان رد الفعل عظيمًا من المغول على ما قاله رجال الدين المغول، حيث ازدادت ثقة المقاتلين من أتباع «تيموجين» فيه؛ ولذلك أصبحت قوة «تيموجين» تتزايد بشكل ملموس، وقرر حلفاؤه منحه لقب "خان"، وكان عندئذٍ لا يزال فى العشرينات من عمره. وقد بايعه الجميع على الطاعة الكاملة، وقاتلوا من أجله، كما منحوه حق معاقبتهم إذا خرجوا على أوامره، قائلين له: أَقْصِنَا عن زوجاتنا، وارْمِ رؤوسَنا بعيدًا فى هذه السهوب الخالية. والمفترض أن كل ذلكَ يُدْخِل الغرور فى نفس «تيموجين»، غير أنها لم تكن فى واقع الأمر أكثر من كلمات فقط، لأن «تيموجين» لم يكن إلا "خانًا" بالاسم فقط وليس بالفعل؛ نظرًا لأن غالبية قادة القبائل يؤيدون خصمه «جاموكا»، فكان على «تيموجين» أن يبذل كل ما يمكنه

من جهد حتى يستميلهم إليه ويجعلهم يناصرونه، حتى يتمكن من القضاء على عدوه.

عندما كان «تيموجين» صغيرًا، كان يأكل الجذور وثمار النباتات البرية ولحم الفئران، ولم تكن عائلته تملك أكثر من تسعة خيول، وكانوا يعيشون فى خوف من ضياع ممتلكاتهم أو سرقتها. لكن ما بين عشية وضحاها يغير اللـه ما يشاء، إذ إن الأيام قد ابتسمت لـ «تيموجين» بعد ذلك، وأصبح زعيمًا على رأس كل المغول، يصدر أوامره إلى زعماء سائر القبائل.

كان «تيموجين» يميِّز ويقدِّر أصحاب الموهبة والمخلصين من الرجال ويضعهم فى المرتبة التى يستحقونها، ولذلك كان يقرّب كلًّا من صديقه «بورجو» وخادمه «جليمو» أكثر من غيرهما، على الرغم من عدم وجود أى صلة قرابة، حتى لقد أصبحا من أقرب مستشاريه!.. ولمزيد من الاحتياطات الأمنية، كلف «خاسار» ـ أفضل رماة السهام ـ بمهمة حراسة الخيمة على رأس 150 مقاتلًا، كما أوكل إلى شقيقه «بيلجوتى» مهمة العناية بالخيول التى وُضعت بالقرب من خيمته لاستخدامها عند الضرورة. ولأن «تيموجين» يعرف كيف مات والده «يسوكاى بهادر»، حيث مات مسمومًا بعد تناول طعام مسموم دُسَّ إليه من قِبَل الأعداء، لذلك فقد أوكل مهمة الطهى إلى بعض أصدقائه المقربين.

وبعد أن نظم «تيموجين» أمور رجاله ورتب أحوالهم، أرسل رسالة إلى «طغرل» دعا فيها إلى توطيد العلاقات بين الجانبين،

وجاء رد «طغرل» على رسالة «تيموجين» برسالة ودية، حيث حملت الرسالة تحذيرًا من تنامى قوة «جاموكا»، وأن «طغرل» يَنتابه القلق الشديد من بروز قوة «جاموكا» على الساحة، وأكد «طغرل» فى رسالته على رغبته فى أن تنمو قوة «تيموجين» وتصبح قادرة على التصدى لطغيان «جاموكا».

ولم يكن «جاموكا» بغافل عما يدور من حوله، فكان يتتبع أخبار خصمه «تيموجين»، وكان كلما سمع خبرًا سعيدًا عن خصمه يشعر بالقلق الشديد ويزداد ضيقًا، فهناك مَثَل مغولى قديم يقول: «لا تَطْمَحْ إلى وضع دُبَّيْن فى كهف واحد». وبالطبع، كان الحلم الذى يراود «جاموكا» أن يكون "خانَ" كل المغول، وأن يكون (الكهف) له وحده دون غيره!

وكان الدُّبَّان ـ «تيموجين» و«جاموكا» ـ يستعدان على قدم وساق إلى معركة قادمة لا محالة فى وقوعها، وكل ما يحتاجان إليه هو ذريعة تُبَرِّر القتال. وجاءت الذريعة وليدةَ حادث عارض وقع فى تلك السهوب، عندما سطا رجل من رجال «جاموكا» على جِيَاد يمتلكها رجل ينتمى لإحدى القبائل الموالية لـ «تيموجين»، وقتل أحدُهما الآخَرَ، وهنا عزم «جاموكا» على الثأر، فهيأ جيشًا وهاجم به قوات خصمه «تيموجين». وقد أحرز «جاموكا» نصرًا خلال الهجوم المباغت، ثم قرر العودة إلى خيامه بعد أن أَسَرَ بعض أفراد جيش «تيموجين». وتشير بعض الروايات إلى أن «جاموكا» قد وضع 70 أسيرًا من جيش «تيموجين» فى الماء المغلى حتى

الموت!.. والمغول يعتبرون ـ ضِمْنَ عُرْفِهم ـ أن سَلْقَ الأسير طريقة غير شريفة لقتل العدو، لأنها تقتل روحه كما تقتل بدنه. وتقول رواية أخرى: إن «جاموكا» قَطَعَ رأسىْ أميرَيْن، وربطهما فى ذيل أحد الجياد وجال بهما فى أرجاء تلك السهوب.

وقد استفاد «تيموجين» من هذه الهزيمة المفاجئة التى تعرَّض لها جيشه على يد جيش خصمه، إذ كانت درسًا من الدروس المهمة لـ «تيموجين» فى حياته العملية، حيث بدأ يبحث عن نقاط الضعف والقوة فى جيشه، ويعمل على سد الثغرات، كما قرر بناء منظومة عسكرية قوية ودقيقة، وجهز الاستعدادات اللازمة ليمحو أثر الهزيمة وينهض أقوى مما كان.

أعاد «تيموجين» ترتيب الأوضاع داخل قبيلته، كما أن عددًا من العشائر انفصلت عن «جاموكا» وانضمت تحت لواء «تيموجين». وفى عام 1195م، جاءت الفرصة إلى «تيموجين» من قبيلة "الجرك" العريضة الثراء التى تسكن منطقةً من مناطق الصين، والتى يُعرف زعيمها باسم "الخان الذهبى"، حيث يسكن قصرًا كبيرًا مؤثَّثًا بالحرير والذهب والعاج يقع فى بكين. وأوكل "الجرك" مهمة الحراسة والشرطة إلى التتار، ودأب التتار على إضعاف المغول حتى لا يشكّلوا إزعاجًا للخان الذهبى، لكن واحدًا من أمراء التتار خان ثقة الخان الذهبى وثار عليه، فأرسل الخان الذهبى يطلب النجدة من «طغرل» الذى استعان بـ «تيموجين» ورجاله، ووجد «تيموجين» أن الفرصة مهيأة للثأر

والانتقام من التتار الذين دسوا السم لوالده، ونجح فى إنزال الهزيمة بالتتار وقتل قائدهم، وتم له الاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم.

وبعد أن نجح «تيموجين» فى مهمته القتالية ضد التتار، عاد إلى دياره عام 1197م، وتعهد رؤساء القبائل الحليفة بمساعدته ضد التتار إذا احتاج إلى ذلك مرة ثانية، لكنهم أخلفوا وعدهم، مما دفعه إلى محاربتهم والتنكيل بهم وهزيمتهم، وأخذ عددًا منهم كأسرى، ثم استدعى رؤساء القبائل الحليفة الباقية، وقطع رؤوس أسراه أمامهم، ونَثَرَ أشلاءهم فى السهوب دون دفن حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

كان المغول يستخدمون الأسرى كعبيد، لكنَّ «تيموجين» تفاهم مع بعض أسراه، ووعدهم بأن يجعلهم جزءًا من قبيلته وأن يعطيهم الحرية إذا أظهروا له الإخلاص، وكانت رسالته إليهم واضحة وصريحة، كما أكد أنه سيتعامل مع المخلصين بالود، أما الخونة فسيكون مصيرهم القتل. وقد أطلق أتباع «جاموكا» على قائدهم لقب "غورخان" - أى: خان كل الخانات ـ كنوع من التعظيم له، فشعر كلٌّ من «تيموجين» و«طغرل» بالإهانة من ذلك، وشَرَعَ الجميع فى الإعداد للحرب.

وفى ليلة القتال هطلت أمطار غزيرة، فحاصر الطين والوحل جيشَ «جاموكا»، ومع هذا فقد تَقَاتَلَ الجيشان، وقد أصيب «تيموجين» خلال القتال بسهم فى عنقه، وحُمل خارج ميدان

القتال، وكان يخشى أن يكون السهم مسمومًا، لذلك ظل مستشاره وخادمه «جيلمو» عدة ساعات يخرج الدم من الجرح لسحب السم خارج الجسد. وعندما أفاق «تيموجين» كان عطشانًا، فلما سقاه «جيلمو» بعض الحليب، التفت «تيموجين» إليه قائلًا: «لن أنسى لك ما حَيِيتُ كلَّ ما فعلتَهُ اليومَ من أجلى».

ثم أصدر «تيموجين» مجموعة جديدة من الأوامر حتى ينفذها رؤساء القبائل، دعا فيها إلى عدم توقف المحاربين عن القتال حتى تتم هزيمة الأعداء، وطالبهم بجمع الغنائم بطريقة منظمة وإيصالها إليه وإلى مستشاريه، وهو الذى سيقرر الطريقة التى تقسَّم بها الغنائم، وكان ذلك عام 1202م. ولكن ثلاثة من زعماء القبائل لم ينفذوا أوامر «تيموجين» بشأن الغنائم. صحيح أنه أبقى على حياتهم، لكنه حرمهم أقلَّ قطعة من الغنائم حصلوا عليها. واعتبر «تيموجين» أن تنفيذَ الأوامر اختبارٌ للجنود من حيث الطاعة الواجبة، وأن تنفيذَها بدقة بدايةٌ مشجِّعة، خصوصًا إذا ما قرر «تيموجين» خوض معركة أخرى ضد التتار الذين فرضوا نفوذهم منذ قرون فى هذه السهوب.

واستعد «تيموجين» للمعركة ضد التتار، وزحف الجيش الذى يقوده نحو مَضَارِب خيامهم، وأمطر الجيشُ المنطقةَ بالسهام بكثافة، وسرعان ما لحقت الهزيمة المريرة بالتتار.

وقد سيطرت الحيرة على «تيموجين» فى كيفية التصرف مع التتار؛ نظرًا لأن التتار قبيلة كبيرة مكونة من آلاف الرجال. هل

يأخذ بعضهم عبيدًا ويترك الباقين، ومن ثم يتجدد القتال معهم مرة أخرى بعد عدة سنوات؟ لكنه فى النهاية اهتدى إلى حل هذه المشكلة عن طريق تحويل التتار إلى مغول، حيث أشار عليه بعض مساعديه بقتل كل ذكور التتار ممن يزيد طول الفرد منهم عن العارض الذى يربط الحصان الذى يجر العربة، أما الأطفال فيمكن إلحاقهم بقبائل المغول كجزء منها!.. وقد حصل «تيموجين» على امرأتيْن من نساء التتار نصيبه من السبايا، فضمهما إلى حريمه كزوجتيْن إلى جانب زوجته الأولى «بورت». وبهذه الطريقة، وفى غضون أشهر قليلة، تم محو قبيلة التتار من الوجود بعد أن كانت قبيلة كبيرة.

اعتنى «تيموجين» بالمخلصين وأصحاب المواهب من الجند، وكان لا يعنيه الطبقة التى ينتمون إليها فى المجتمع، فقد كان القائد العام لقواته ابن حَدَّاد، وكان للنظام الجديد الذى اتبعه «تيموجين» فى المنظومة العسكرية فضل كبير فى تحول جنوده إلى ماكينات قتالية رهيبة مرهوبة الجانب من الجميع.

ولم تكن للمغول لغة مكتوبة، لذلك تم ابتداع نظام الرسل الذين ينقلون الرسائل شفويًّا ويتوزعون على نقاط بنظام البريد.

وبعد أن حقق «تيموجين» النصر على التتار، بعث رسالة إلى «طغرل» يخطب فيها ابنتَهُ إلى ابنه «جوجى»، مقابل أن يُزَوِّجَ إحدى بناته إلى ابن من أبناء «طغرل». وكان «طغرل» قد أصبح

رجلا مسنًّا، وعندما يموت يجب أن يأخذ مكانَهُ شخصٌ مَّا، لذلك فإن «تيموجين» أعد نفسه لهذا الموقع بتلك الزيجات!

فى البداية رفض «طغرل» العرض، لكنه عاد ودعا «تيموجين» إلى حفل لتزويج الأولاد، وحين ذهب بمصاحبة قليل من قومه، تم نصحه بأن ينتبه إلى أن «طغرل» ربما يكون قد أعد لقتله مع عائلته. عندها فر «تيموجين» مع صحبه، وكان جيش «طغرل» يلاحقهم بالفعل، فنَفِدَ طعامهم، وتشتت الأصحاب، وفُقِدَ قسمٌ منهم.

صحيحٌ أن «تيموجين» يحكم قبيلة كبيرة، ولكنَّ كَوْنَها من عدة أعراق، فمعنى ذلك أنها قبيلة ضعيفة الولاء، وقد تتخلى عنه لأى سبب وتمنح ولاءها إلى «طغرل» أو «جاموكا».

تجمَّعَ 19 قائدًا ـ يدينون بديانات مختلفة ـ حول «تيموجين»، فقد كان بعضهم مسيحيًّا، وبعضهم الآخر بوذيا، وبعضهم ـ مثل «تيموجين» ـ يعبدون إله الطبيعة.. وأعدوا جميعا للحرب.

وأرسل «تيموجين» رسالة إلى «طغرل» يدعوه فيها إلى نسيان الماضى، فشعر «طغرل» بالفرح لذلك، وأرسل الموافقة مع رسوله الخاص إلى «تيموجين»، ولكن رجال «تيموجين» أمسكوا الرسول وقتلوه، وتوجهوا ليلًا إلى قبيلة «طغرل» وهاجموها، واستمرت المعركة ثلاثة أيام، قُتل فيها «طغرل» أثناء محاولته الفرار، واستسلمت قبيلته!

«جاموكا». أخيه بالدم. وطبقًا لكتاب 'التاريخ السرى للمغول'، فإن «تيموجين» سأل «جاموكا» لآخر مرة إن كان يمكن أن يعود حليفًا له، لكن «جاموكا» رد عليه بأنه لن يستطيع؛ لأن الثقة انقطعت بينهما، وهنا كان على «تيموجين» أن يقتله دون تأخير، وأن يدفنه فى أرض مرتفعة.

أعطى «تيموجين» أوامره بقتل «جاموكا»، ودفنه فى أرض مرتفعة، ووضع معه فى قبره سهمًا ذهبيًّا إكرامًا له. وكان «تيموجين» قد بلغ 43 سنة فى اليوم الذى نجح فيه بقتل «جاموكا»، وعندئذٍ أصبح القائد الأعلى الوحيد لكل المغول.

فى هذا اليوم، تجمَّع آلاف المحاربين المغول عند أحد روافد نهر أونون، ونصبوا خيامهم قرب خيمة «تيموجين»، وربطوا أعلامًا إلى ذيول خيولهم، ونثروا أطنانًا من الزهور فوق سطوح خيامهم، وبايعوا «تيموجين» قائدًا أعلى تحت اسم «جنكيز خان».

«جنكيز خان» والقانون

بعد أن دانت الأمور كلها لـ «جنكيز خان» وتمكَّن من إحكام السيطرة على منغوليا، فكر فى عقد أول برلمان "قوريلتاى". وخلال هذا الاجتماع، حدد «جنكيز خان» الضوابط والقوانين الخاصة بالإمبراطورية المغولية، ووضع دستورًا اجتماعيًّا قويًا استهدف منه الحفاظ على أركان الإمبراطورية، وأطلق عليه اسم "الياسا". ولقد قدس المغولُ "الياسا" مثلما يقدس أصحاب الديانات السماوية كتبهم السماوية.

لقد كان «طغرل» بمثابة والد لـ «تيموجين»، لكنه بعد أن خان ثقة ابنه الروحى، كان يجب عليه أن يموت. وقد نجح «تيموجين» خلال سنتين فى أن يُنْزِل الهزيمة بأكبر قبيلتيْن فى المنطقة، وهما: قبيلة التتار، وقبيلة «طغرل»، لكنه لم يزل يشعر بعدم الارتياح؛ وذلك لتحالف قبائل "النايمان"، التى تمتلك آلاف الرجال، مع «جاموكا».

وجاء عام 1204م، واستعد «تيموجين» استعدادًا كاملًا لقتالهم، ولكى يُدخل الفزع والرعب فى نفوسهم، ويخدعهم بأن عدد أفراد قواته يفوقون عدد أفراد قواتهم، أمر جنوده الذين يسيرون فى مقدمة الجيش بأن يحمل كل واحد منهم ليلًا وهم يتقدمون خمس شعلات بدلًا من شعلة واحدة. وحين بدأ القتال، شنوا على "النايمان" عدة هجمات بين كَرٍّ وفَرٍّ ورموهم بالسهام من كل الاتجاهات حتى تسرب الارتباك إليهم، مما عَجَّلَ بتراجعهم ودفعهم للاختباء خلف أحد الجبال، فانتهت بذلك الحرب، وفر «جاموكا» ـ حليف "النايمان" ـ إلى الجبال أيضًا بعد أن تخلى عنه أغلب أتباعه، وظل مع قلة من أصحابه فى البرية سنةً كاملةً يقتاتون على صيد الحيوانات. وحين تعب الرجال من هذه الحياة الشاقة، خانوا «جاموكا»، فأسروه وذهبوا به إلى «تيموجين». ولأن «تيموجين» لم يكن يكره شيئًا كالخيانة، فقد أخذ «جاموكا»، وأعدم رفاقه الذين غدروا به أمام عينيه، وصار الآن بمواجهة واجبٍ قاسٍ، فقد كان على «تيموجين» أن يتخلص من

ويحفل دستور "الياسا" الذى وضعه «جنكيز خان» بالعديد من القوانين.. وهى رغم بساطتها، إلا أنها كانت حازمة فى التعامل، حيث نصت على احترام المجتمع المغولى، مما جعله يتفوق على مجتمعات الشعوب الأخرى.

ويمكن القول إن دستور "الياسا" قد أدي الدور الرئيسى فى الانتصارات المتلاحقة التى حققها المحاربون المغول الأشداء، المتعطشون لسفك الدماء، حيث نص على توحيد المعتقَد، وأنزل العقاب بالخارجين عليه، وبالتالى ضمن للدولة الاستمرار وتحقيق الانتصارات لأفضل فترة ممكنة.

وقد تضمنت "الياسا" عقوبات مشددة ضد مرتكبى جرائم السرقة، وانتهاك الأعراض، والزنا واللواط، وغيرها من أنواع الجرائم. وألزمت "الياسا" كلَّ أفراد المغول بنبذ التعصب إلى أىٍّ من المذاهب الدينية، وشددت على عدم تفخيم أىٍّ من الأفراد، باستثناء السلطان فقط. وهنا وجد الرعايا المغول أنهم أمام دستور يضبط المعاملات فى الحياة، سواء فى الحياة المدنية أوالعسكرية، وأن الجميع أمام القانون سواء.

الحرب بين «جنكيز خان» والصين

كان من الطبيعى أن يقع الصدام الحتمى بين «جنكيز خان» وإمبراطورية الصين، وذلك بسبب أن أسرة "كين" حاكمة الصين كانت تتبع سياسة تقوم على تحريض القبائل التركية والمغولية ضد

بعضها حتى تضمن عدم بروز أى قوة منافسة لها فى المنطقة، الأمر الذى يوفر لها أن تكون سيدة الموقف. ولذلك قرر «جنكيز خان» أن يضع حدًّا لأسرة "كين" حتى تبتعد عن القبائل المغولية، فجهز جيوشه واستعد لقتال الصينيين، ودخل معهم فى حرب سنة 1211م، وتمكن من تحقيق النصر على الصينيين، ودانت له السيطرة على البلاد الواقعة داخل سور الصين، وعين عليها حكامًا تابعين له. ثم كرر «جنكيز خان» غزو الصين مرةً ثانيةً بعد أن حشد لذلك جموعًا هائلة سنة 1213م، لكنه لم يحقق عليهم نصرًا حاسمًا، ثم جرت محاولات للصلح بين الطرفين، لكن هذه المحاولات لم تكلَّل بالنجاح؛ لأن إمبراطور الصين الذى كان قد عرض الصلح على «جنكيز خان»، عاد وتراجع عنه، ونقل عاصمة حكمه من بكين إلى مدينة أخرى فى الجنوب، ثم بدأ فى ترميم القلاع والحصون، واتخذ كل الاحتياطات اللازمة لمواجهة المغول. وأثار ذلك الغضبَ فى نفس «جنكيز خان»، وأوغر صدره بالحقد على إمبراطور الصين، وقرر أن يجهز ردًّا سريعًا ومباغتًا يتم بمقتضاه إنزال هزيمة نكراء بعدوه. وكان «جنكيز خان» ينوى العودة إلى منغوليا، ولكنه تراجع عن قراره فى العودة إلى هناك، وخاض قتالًا عنيفًا مع الجيش الصينى غير المستعد لخوض القتال، وانتصر عليه فى هذه المعركة الفاصلة، فسقطت على أثرها العاصمة بكين سنة 1215م، وكان لسقوطها دَوِىٌّ هائل، ودَقَّ ناقوس الخطر منذرًا الممالك الإسلامية التى كانت تأوى الفارين من أعداء

«جنكيز خان»، وكشف سقوط إمبراطورية الصين عن الموهبة العسكرية التى كان يتمتع بها «جنكيز خان» فى ميادين الحرب والقتال.

وكان «جنكيز خان» ـ بعد أن تمكن من تحقيق النصر على الصين ـ يجهز جيشه لتعقب أعدائه الفارِّين إلى المالك الغربية حتى يلقنهم درسًا فى عدم المكيدة له، وكذلك لكى يتفرغ لمهمة قتالية جديدة.

قضاء «جنكيز خان» على «كوجلك خان»

كانت تحد الصين ومنغوليا من جهة الغرب مباشرةً مملكة "القره خطائيين" العظيمة التى يتزعمها «كورخان»، وتشمل المنطقة الواقعة من بلاد الأويغور حتى بحر الآرال. وقد بدأ الضعف يصيب مملكة القره خطائيين نتيجة الهجمات التى كانت تتعرض لها من قِبَل القبائل الرُّحَّلِ وغيرها من القبائل التى نزحت من مواطنها بسبب ما تعرضت له من هزائم على يدىْ «جنكيز خان»، وأدى الضعف الذى أصاب هذه المملكة إلى انشقاق بعض الحكام المسلمين التابعين لها، خاصة السلطان «علاء الدين محمد خوارزمشاه»، وكذلك خضوع الأمير «آدقوت الأويغورى» لسلطان «جنكيز خان»، وكذلك «أرسلان خان» أمير القرلق، وهو أول أمير تركى مسلم يخضع لـ «جنكيز خان». وكان «كوجلوك خان بن تايانك» ـ ابن ملك "النايمان" ـ قد هرب مع جمع كبير من أتباعه ولجأ إلى «كورخان» ملك القره خطائيين، فى

الوقت الذى شق فيه السلطان «علاء الدين خوارزمشاه» عصا الطاعة على «كورخان»، ورفض دفع الضريبة السنوية المتبعة، وكان هذا أمرًا ليس بالهين، إذ ينذر بنشوب الصراع بين «كورخان» ملك القره خطائيين و«علاء الدين بن محمد خوارزمشاه»، فكلاهما يمتلك جيشًا قويًا مستعدًّا ومدربًا على خوض القتال، فانتهز «كوجلوك خان» الفرصة، وعرض على «كورخان» تقديم العون له بجمع شتات جيشه الممزق والوقوف إلى جواره للتصدى إلى أطماع وطموحات «خوارزمشاه». وفى البداية لم يستجب إليه «كورخان»، ولكنه فى نهاية الأمر اقتنع بوجهة نظره. وقد جمع «كوجلك خان» جيشًا كبيرًا ضم جنودًا غفيرة من قبائل "النايمان"، وعلاوةً على ذلك انضم إليه أيضًا حاكم قبيلة "الماركيت" الذى فر من أمام «جنكيز خان». وأصبح الجيش الذى شكله «كوجلك خان» أقوى من جيش القره خطائيين، ومن هنا نشب الصراع بين الضيف والمُضِيف، وتمكن فى النهاية «كوجلك خان» زعيم قبيلة "النايمان" من أن يحسم القتال لصالحه. ولجأ كلا الطرفين إلى «خوارزمشاه» لينصره على الطرف الآخر، فطلب «كورخان» ـ زعيم القره خطائيين ـ من السلطان «علاء الدين خوارزمشاه» تناسِى العداء، ودعاه إلى فتح صفحة جديدة فى العلاقات بين الجانبين، كما أن «كوجلك خان» قد راسل «خوارزمشاه» ودعاه للتحالف لضرب القوة القره خطائية، منتهزًا

بذلك فرصة العداء القديم بين «خوارزمشاه» و«كورخان». وفكر «خوارزمشاه» فى تحقيق أكبر استفادة من الموقف، ووعد كل طرف بالوقوف إلى جواره فى القتال. ووقف جيش «خوارزمشاه» يراقب سير العملية القتالية متخذًا موقف المتفرج، ولكن كان فى قرارة نفس «خوارزمشاه» أن يقف إلى جانب الطرف المنتصر فى القتال. وعندما دارت الدائرة على جيش القره خطائيين، وقع «كورخان» فى الأسْر، وأُلقى به فى السجن حتى مات فيه بعد عامين.

عندئذٍ دخل جيش «خوارزمشاه» الميدان، وأجهز على البقية الباقية من جيش القره خطائيين، وترتبت على ذلك كارثة كبيرة كانت لها عواقب خطيرة للغاية، حتى على مستقبل الدولة الخوارزمية والشرق الإسلامى بصفة عامة؛ ذلك لأن حدود بلاد «كوجلوك خان» أصبحت مجاورة لحدود دولة «خوارزم شاه»، الأمر الذى وضع السلطان «علاء الدين محمد خوارزمشاه» فى موقف صعب؛ لأن «كوجلوك خان» كان قد هرب من أمام عدوه «جنكيز خان»، ومن ثم فإن القتال فيما بينهما سيكون حتميًّا فى المرة المقبلة ولا مفر منه.

وبدأ «جنكيز خان» يتأهب ويعد جيشه للسير فى اتجاه الغرب نحو حدود دولة غريمه وعدوه اللدود «كوجلوك خان».

أما عن «كوجلوك خان»، فعندما اعتلى عرش القره خطائيين، بدأ يجمع شتات القبائل ويتوسع على حساب القبائل الضعيفة، حتى امتدت حدود دولته من التبت حتى حدود الدولة

الخوارزمية. وكان من البديهى أن ينشب القتال بين «خوارزمشاه» و«كوجلوك خان» نتيجة لسوء تصرف الأخير ضد المسلمين فى بلاده، فقد اتخذ «كوجلوك خان» موقفًا عدائيًّا من المسلمين، فى الوقت الذى كان يحسن فيه معاملة البوذيين، حتى إنه كان يجبر المسلمين على التخلى عن دين الإسلام ويجبرهم على اعتناق المسيحية أو البوذية، كما كان يمنعهم من أداء الشعائر الدينية، فضج المسلمون من سوء تصرفات «كوجلوك خان» ضدهم. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى، اعتبر «خوارزمشاه» أنه هو نفسه المقصود بالموقف العدائى ضد المسلمين من قِبَل «كوجلوك خان»، لأن «خوارزمشاه» يعتبر راعى المسلمين. وبدأت بوادر العداء بين الجانبين تصعد إلى السطح عندما طالب «خوارزمشاه» «كوجلوك خان» بنصف مملكة القره خطائيين، إذ إنه كان شريكه فى القضاء على مملكة القره خطائيين، فكان رد «كوجلوك» ردًّا شديد اللهجة، وغلفه بالتهديد بشن الحرب ضد الدولة الخوارزمية، فأعلن «خوارزمشاه» الحرب على «كوجلوك خان»، وبعث ببعض قواته للهجوم على أراضى القره خطائيين، ولم يمنع «كوجلوك خان» من الرد على الهجوم غير انشغاله بالقتال ضد المغول الذين اندفعوا بشراسة لقتال «كوجلوك».

ولم يكن «جنكيز خان» بمعزل عما يدور من حوله، فقد كان يراقب التطورات من حوله، ويدرس كيف تمكن «كوجلوك خان» من القضاء على دولة القره خطائيين. إذن، فهل يترك «جنكيز

خان» لعدوه فرصة أن يَقْوَى ويشتد عوده؟.. رأى «جنكيز خان» أن ذلك ليس من الحكمة، فلابد من الإعداد الجيد ومهاجمة «كوجلوك».. عدوه وابن عدوه!.. ولذلك فعندما فرغ من حروبه فى الصين، جهز جيشًا لقتال القبائل التى تمردت عليه وانضمت إلى «كوجلوك خان»، وقاد هذا الجيش اثنان من أشهر قادة الجيش المغولى: «سوبوتاى» و«جبه نويان»، وأكد عليهما بضرورة قتل «كوجلوك خان» وإحضاره حيًّا أو ميتًا. وتمكن «سوبوتاى» من إنزال هزيمة بـ "الماركيت" وقضى على جميع أفرادها، وأما «جبه نويان» فظل يتتبع «كوجلوك خان» فى كل مكان وهو يفر دون أن يحاول مواجهة قوات المغول المهاجمة على الإطلاق، حتى تفككت دولته، وأصبح «جبه نويان» الحاكم الفعلى المهيمِن على المملكة، وعندما أمسك بتلابيب الحكم، أعلن إطلاق الحريات الدينية للجميع، فتنفس المسلمون الصُّعَدَاء، أما «كوجلوك خان» فهام على وجهه، ولم يستقر فى مكان يؤويه حتى لا يقع فى قبضة خصومه، ولكن من سوء حظه أنْ تمكنت جماعة من الصيادين من التعرف عليه، فقبضت عليه، وسلمته إلى الجنود المغول الذين قاموا بدورهم بقطع رأسه، ثم بعثوا بها على الفور إلى «جنكيز خان» فى "قره قورم" عاصمة الإمبراطورية المغولية، أما من بقى من طائفة "النايمان" فكان نصيبهم حصد رقابهم بالسيوف، وكان ذلك فى سنة 1218م.

وبعد القضاء على «كوجلوك خان»، دانت السيادة للمغول على جميع القبائل التى كانت تخضع لمملكة القره خطائيين.

لقد نجح «جنكيز خان» فى تأسيس دولته على حساب القبائل الموجودة فى شرق آسيا، حتى أصبحت حدوده تجاور حدود الدولة الخوارزمية، وكان من الطبيعى أن يفكر كل طرف منهما فى الانقضاض على الطرف الآخر متى حانت الفرصة لتحقيق ذلك.. وهكذا كانت لعبة القوة فى ذلك العصر!

كان كل طرف يتتبع أخبار الطرف الآخر، وعندما سقطت بكين فى أيدى المغول، لم يصدق «خوارزمشاه» صحة هذا الخبر، واعتبره ضربًا من ضروب الخيال، فأراد أن يتحقق من صحة هذا الخبر بنفسه، وأرسل وفدًا إلى «جنكيز خان» للوقوف على صحة الأمر، واستقبل «جنكيز خان» هذا الوفد استقبالًا طيبًا، وبعث معه برسالة، جاء فيها أنه يعتبر نفسه ملك المشرق، ويعتبر «خوارزمشاه» ملك المغرب، ويأمل أن يسود الود والوئام بين الدولتين، وأن يجرى تبادل التجارة فيما بينهما، الأمر الذى يعم بالخير على الجانبين.

كان المعروف عن «جنكيز خان» أنه يتميز بطبيعة عدوانية، ولا يبالى بالعلاقات الطيبة مع أى دولة من دول الجوار، ولكن الغرض الذى دفعه لإرسال هذه الرسالة هو عدم فتح جبهة عداء ضد الخوارزميين قبل أن يُحْكِم سيطرته بالكامل على المناطق الصينية. لكن تفكيره هداه إلى إبرام معاهدات تجارية بين الإمبراطورية

المغولية والدولة الخوارزمية، بحيث يمكنه من خلال الوفود التى تنطلق من بلاده إلى المناطق الواقعة تحت حيازة الخوارزميين أن يعرف كل صغيرة وكبيرة عن هذه الدولة، وبالتالى يتمكن فيما بعد من مهاجمة دولة الخوارزميين وإخضاعها لنفوذ المغول، وتحقيق حلمه التوسعى بالسيطرة على أرجاء المعمورة، وتكوين دولة مترامية الأطراف يحكمها هو وأبناؤه من بعده.





[3]

حروب المغول ضد الدولة الخوارزمية


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

«ليس يَخْفَى علىَّ عظيمُ شأنِكَ، وما بلغتَهُ من سلطانِكَ. وقد علمتُ بَسْطَةَ مُلْكِكَ فى أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مُسَالَـمَتَكَ من أكثر الواجبات، وأنتَ عندى مثل أَعَزِّ أولادى، وليس خافٍ عليك أننى مَلَكْتُ الصين، وما يليها من بلاد التُّرْك، وقد أذعنَتْ لى قبائلهم. وإن رأيتَ أن تفتح للتجار فى الجهتيْن سُبُلَ التردُّد، عَمَّت المنافع وشملت الفوائد».

وعندما تُلِيَت الرسالة على السلطان اشتاط غضبًا؛ لأنها كانت تحمل التهديد والوعيد، إذ إن «جنكيز خان» أهانه حين اعتبره فى منزلة الابن، إذ إن معنى هذا التبعية للخان المغولى؛ فمن المعروف أن العلاقة بين الابن وأبيه علاقة تبعية، وكانت تُكتب فى المعاهدات السياسية بين أمراء آسيا الذين لا يعرفون معنًى للعلاقات التى تقوم بين الطرفيْن المتحالفيْن. ومثلت رسالة «جنكيز خان» نوعًا من الصدمة الحقيقية تعرض إليها السلطان «محمد خوارزمشاه»؛ فبعد أن كان صوته يُدَوِّى ويجلجل بين الأمراء المسلمين بالتهديد والوعيد، أصبح هو الآن مَن يتعرض لتهديد حقيقى من الخان المغولى فى أقصى الشرق. وقد طلب «خوارزمشاه» من أحد التجار الثلاثة أن يكون عينًا له على «جنكيز خان»، ثم منحه جوهرة نفيسة، وقد قبل التاجر ذلك حتى يهدأ السلطان ويتجنب غضبه، وتأكد منه أن «جنكيز خان» قد تمكن من السيطرة على الصين بالفعل، حيث كان الشك قد تسرب إلى نفس السلطان «محمد خوارزمشاه» من صحة ادعاء «جنكيز خان»

فى بداية الأمر، أراد «جنكيز خان» أن يبنى علاقة طيبة مع السلطان «محمد خوارزمشاه»، لأن العلاقات بين الطرفين كان يشوبها بعض الفتور المغلف بالحذر، وكان «جنكيز خان» يرغب فى تنشيط التجارة بين الشرق، على أن تتاح للتجار حرية التنقل بين الأقاليم دون أى ممانعة أو معوقات، وكذلك تأمين حياة التجار دون مضايقة.

لم يكن «جنكيز خان» فى ذلك الوقت يفكر فى تعكير أجواء العلاقات مع الدولة الخوارزمية، أو حتى فى غزو الأقاليم الخوارزمية. ومن أجل تحقيق تلك الغاية، أوفد «جنكيز خان» وفدًا تجاريًّا ضم ثلاثة تجار من المسلمين إلى ديار «خوارزمشاه»، وقد حَمَّلَهم بالهدايا الثمينة، كان من بينها سبائك من الفضة، وبعض الطيور النادرة، والمنسوجات الصوفية. وفى سنة 1218م، وصل الوفد التجارى المغولى إلى بلاط السلطان «علاء الدين خوارزمشاه» فى بُخَارَى، فى أعقاب فشل الحملة التى قام بها من أجل إسقاط الخلافة العباسية فى بغداد، وقد سلمه التجار الثلاثة رسالة من «جنكيز خان»، جاء فيها:

باحتلال الصين. واضطر السلطان «محمد خوارزمشاه» للموافقة على التبادل التجارى مع دولة المغول، بعد أن أدرك مدى القوة العسكرية التى يمتلكها المغول، ورأى أنه ليس من المنطقى أن يخوض قتالًا ينهك قوة دولته. وعلى أثر توقيع الاتفاقية التجارية بين إمبراطورية المغول والدولة الخوارزمية، عمل «جنكيز خان» من جانبه على تأمين طريق التجارة بين شرق آسيا وغربها وتوسيع نطاقها، وتأديب القبائل التى تعترض طرق التجارة والقضاء على سطوتها، وتوفير فريق عمل لحماية طريق التجارة. وفى ظل حالة الوضع الأمنى المستقر، خرج ثلاثة التجار من بخارَى برحلة إلى الممالك المغولية وهم يحملون بضائعهم من المنسوجات الحريرية المُوَشَّاة بالذهب، فقادهم حراس الطرق إلى بلاط «جنكيز خان»، ولا سيما بعد أن تأكدوا أن ثالثهم يحمل ثيابًا فاخرة تليق بزعيمهم. وعندما سأل «جنكيز خان» عن ثمن الثياب، طلب التاجر ثمنًا باهظًا لها، مما أغضب الخان وأمر أتباعه باغتصابها، أما التاجران فقد أعلنا أنهما قَدِمَا إلى بلاط الخان بالبضاعة التى معهما هديةً إليه، وحين ذلك دفع إليهما مبلغًا ضخمًا وأحسن إكرامهما، وأفرج عن زميلهما بعد أن دفع له ثمن بضاعته.

«جنكيز خان» يرسل وفدًا تجاريًّا إلى بلاد «خوارزمشاه»

عندما هَمَّ التجار الخوارزميون الثلاثة بمغادرة بلاد المغول، شكل «جنكيز خان» وفدًا تجاريًّا كبيرًا بلغ عدده 450 رجلًا من المسلمين الموجودين فى البلاد الخاضعة للبلاط المغولى. وحمل

التجار نفائس البضائع من أقمشة وذهب وفضة وأحجار كريمة، إلى جانب مجموعة من الإبل، وحملوا أيضًا رسالة من الخان إلى السلطان «علاء الدين خوارزمشاه» تدعوه إلى حسن التعامل مع الوفد التجارى المغولى، وعدم التعرض له أو مضايقته، حتى يتمكن من تحقيق أهدافه ويتأكد الوفاق بين الجانبين. وتحركت القافلة إلى ممالك السلطان حتى وصلت مدينة أوترار على الساحل الغربى لنهر سيحون، وهى أول بلدة تقع فى منطقة نفوذ السلطان، ولها أهمية تجارية خاصة، وتعتبر ملتقى التجارة بين شرق آسيا وغربها، وكان يحكم المدينة فى ذلك الوقت «ينال خان»، وكان رجلًا يتميز بالحماقة وسوء النوايا، ويعتمد فى حكمه على قرابته من والدة السلطان التى كانت صاحبة اليد الطُّولَى فى الدولة الخوارزمية. وفكر «ينال خان» ـ ابن خال السلطان ـ فى الاستيلاء على أموال التجار، وقبض عليهم بذريعة أنهم جواسيس للمغول، وكان من بين وفد التجار تاجر هندى كان على صلة سابقة بـ «ينال خان»، فخاطبه كما كان يخاطبه فى السابق دون تكلف باسم «إينال جوق»، معتمدًا على حسن العلاقات السابقة معه، وعند ذلك تغيرت ملامح وجه «إينال خان»، وعقد العزم على الاستيلاء على أموال التجار، لهذا فإنه أوقفهم جميعًا دون استثناء، وأرسل رسولًا إلى السلطان يخبره عن قدوم وفد تجارى مغولى، وادعى أنهم جواسيس يتسترون فى زى تجار، ولكن حقيقة الأمر أنهم جاءوا إلى البلاد فى مهمة استطلاع هدفها الكشف عن قوة الخوارزميين.

وصَدَّقه السلطان، واتخذ قرارًا انفعاليًّا غير محسوب العواقب، حيث أمر بقتلهم جميعًا فى الحال، ومن غير رَوِيَّة، ومصادرة ممتلكاتهم. هذا، وبغَضِّ النظر عما إذا كان قتل التجار بأمر السلطان «خوارزم شاه»، أم أن «ينال خان» هو مَن فعل ذلك من تلقاء نفسه، فإن أحد التجار استطاع أن ينجو من المذبحة، ونقل خبر الحادث المشئوم للخان. وقد كان من الممكن أنِ يتدارك السلطان الخطأ الذى وقع فيه ويصلح من شأن العلاقات مع «جنكيز خان»، إلا أن الغرور سيطر عليه. وحاول «جنكيز خان» أن ينهى الأزمة بصورة ودية عن طريق استخدام التوازن العقلى، فبعث وفدًا يضم ثلاثة من التجار المسلمين وحَمَّلَهم رسالة احتجاج إلى السلطان على ما وقع من جانبه تجاه الرعايا المغول، فالسلطان كان قد قطع العهد على نفسه بتوفير الأمن للتجار. وطلب الخان فى رسالته من السلطان تسليمه «ينال خان» حاكم أوترار حتى يلقى جزاءه، لكن السلطان رفض الاحتجاج، ورفض تسليم «ينال خان»؛ لأن تسليمه يعنى إظهار جانب الضعف من جانب السلطان، هذا علاوةً على أن «ينال خان» هو ابن خال السلطان وتربطهما صِلَة الرَّحِم. ولم يكتفِ السلطان بالرفض، بل قتل رسل «جنكيز خان» الثلاثة، وبذلك قطع كل الطرق لتسوية المشكلة بصورة سلمية، ومن ثم أصبحت الحرب بين الطرفيْن أمرًا لا مفر منه، وبهذا جر السلطان على نفسه وعلى الممالك الإسلامية الويل والخراب.

صحيح أن «جنكيز خان» كانت لديه أطماع كبيرة وطموح لا حد له فى الهيمنة على العالم، كما كان يُعِدُّ العُدَّةَ للتوجه نحو الغرب والانقضاض على ممالك الخوارزميين فى الوقت المناسب، لكن التصرفات غير المسؤولة من قِبَل «علاء الدين بن محمد خوارزمشاه» تجاه التجار المغول فى أوترار وإقدامه على قتلهم، ورفضه التحقيق فى أمر الحادثة، ورفضه تسليم «ينال خان»، ثم أمره بقتل رسل «جنكيز خان» الذين حملوا رسالة الاحتجاج على قتل التجار.. كل هذه التصرفات أغلقت سبل التفاهم بين الطرفين.. وكل ذلك أعطى «جنكيز خان» الحجة الدامغة لتبرير الهجوم عليه. إذن فتصرفات «خوارزمشاه» هى التى أعطت الفرصة لـ «جنكيز خان» للإسراع بإعلان الحرب عليه. وقد جرت مذبحة أوترار على المسلمين أكبر المصائب التى عرفوها فى تاريخهم، إذ حطم المغول حضارة المسلمين، وأعملوا فيهم القتل والتعذيب والتشريد، حتى أصبحت مدنهم خرابًا.

حملة «جنكيز خان» على الدولة الخوارزمية

كان للأحداث المتعاقبة على مقتل التجار المغول فى أوترار أسوأ الأثر على «جنكيز خان»، لدرجة أنه حَرَّم النوم على نفسه، وبدأ يفكر بجدية فى الانتقام من خصمه الذى ضرب كل محاولات التفاهم واستمر ملتزمًا العناد الشديد. وبدأ «جنكيز خان» فى إعداد جيشه لخوض المعركة ضد الخوارزميين، وأصبح السلطان «خوارزمشاه» فى موقف لا يُحسد عليه، حيث بدأ فى استنفار

خصوم السلطان «محمد» الذين فروا منه ولجئوا إلى «جنكيز خان» وكانوا يطالبونه دائمًا بردع السلطان.

الاستيلاء على أوترار

كانت مدينة أوترار أول مدينة استهدفها المغول؛ لأنها تعتبر ـ من وجهة نظر «جنكيز خان» ـ مفتاح إقليم ما وراء النهر، ومن جهة أخرى كان لا يزال يحكمها «ينال خان» الحاكم الخوارزمى الذى قتل التجار المغول، الأمر الذى جعل «جنكيز خان» يصرّ على تأديبه والثأر لمقتل رعاياه. وقد اجتهد حاكم مدينة أوترار فى الدفاع عن مدينته، حيث جهز الحصون، وأعاد ترميم المبانى وحصن القلعة، وجهز حامية قوية للدفاع عن المدينة ضد الخطر القادم. وقد أسرع المغول إلى محاصرة المدينة، وكان «ينال خان» يعرف مصيره إذا وقع أسيرًا فى يد أعدائه، ولذلك فإنه لم يدخر جهدًا فى تحصين المدينة والدفاع عنها دفاع المستميت، واستمرت المدينة صامدة لأكثر من خمسة أشهر، وكان يحاصرها «أوكتاى» و«جغتاى» وَلَدَا «جنكيز خان». وتَحَصَّنَ «ينال خان» مع جنوده فى قلعة المدينة، ونجحوا بادئ الأمر فى إنزال خسائر جسيمة بصفوف المغول، غير أنه قد وجد نفسه فى النهاية محاصَرًا من كل جانب وقد سقط جنوده صَرْعَى من حوله، ففَقَدَ الأمل فى الصمود أمام المغول، ووقع فى قبضة المغول الذين أرسلوه بدورهم إلى «جنكيز خان» حتى يقضى فى أمره، وقتل «جنكيز» خصمَهُ بطريقة بشعة

المسلمين للقتال ضد المغول من منطلق أن هذا واجب دينى، ولكن كيف يصدقه المسلمون ومن قُتل فى أوترار كانوا من المسلمين دون سواهم؟!.. على الجانب الآخر، كان «جنكيز خان» يعتقد أن السلطان «خوارزمشاه» رجل قوى، وأن حكومته من أقوى حكومات الممالك فى ذلك الوقت، ولهذا جهز جيوشه - ومعه أبناؤه - متجهًا إلى ما وراء النهر، وصاحَبَهُ فى تلك الحملة أمراء القرلق والأويغور الذين وافقوا على الدخول تحت لوائه. وكان ذلك فى خريف سنة 1219م.

مهاجمة إقليم ما وراء النهر

بنى «جنكيز خان» خطته الاستراتيجية على مهاجمة هذه المنطقة من أربعة محاور، بحيث تصبح عملية فتحها سريعة دون معوقات، وقسم قواته إلى أربعة جيوش: **الجيش الأول** بقيادة ابنه «أوكتاى»، وهدفه الاستيلاء على أوترار. و**الجيش الثانى** بقيادة ابنه «جوجى»، وهدفه فتح المدن الموجودة على ساحل نهر جيحون، ومنها مدينة جند. و**الجيش الثالث** لفتح المدن المطلة على نهر سيحون، مثل بناكت وخجند. و**الجيش الرابع** كان على رأسه «جنكيز خان» نفسه وابنه «تولوى»، وكان يضم غالبية القوات المغولية. وكانت مهمة هذا الجيش قطع طرق الإمداد بين السلطان «محمد خوارزمشاه» وقواته التى تدافع عن المدن المحاصرة. وهنا تبرز رؤية «جنكيز خان» وفهمه لطبيعة المنطقة، كما كانت لديه قاعدة معلومات صحيحة عن الطرق والمسالك التى يطرقها، إذ حصل عليها من

رغبةً منه فى التشفى فيه، نظرًا لما بَدَرَ منه ضد رعاياه من التجار.
وبعدما دخل الجنود المغول إلى مدينة أوترار، لم يَبْقَ شخصٌ فيها على قيد الحياة، فقد كان الغل يملأ صدورهم بالرغبة فى الانتقام من سكان أوترار نتيجة لحادث مقتل التجار، ثم بدأت حملات النهب والسلب، فلم يُبْقُوا على شىء فى المدينة، ثم أسروا الكثير من السكان. وبعد انتهاء الجيش من مهمته، بدأ التحرك ليلحق بجيش «جنكيز خان» الذى كان مشغولًا بفتح المناطق الوسطى من إقليم ما وراء النهر.

سقوط مدينة جند

أما الجيش الثانى الذى كان يقوده «جوجى»، فقد حاصر مدينة سقناق لمدة سبعة أيام، ثم سقطت المدينة، وكان هدفه الاستيلاء على مدينة جند، التى تعتبر من الثغور الهامة على نهر سيحون، واستولى فى طريقه على العديد من القلاع والحصون. وعندما اقتربت القوات المغولية من المدينة، بعث إليهم «جوجى» رسولًا يدعوهم للتسليم، وذلك بعد أن تخلى عنهم جنود الخوارزميين وتركوهم لمصيرهم المحتوم. وقد انقسم السكان إلى فريقين: فريق يؤيد التسليم، والفريق الآخر يؤيد استمرار المقاومة. وأصدر «جوجى» أوامره بتشديد الحصار، حتى سقطت المدينة فى عام 1220م، وغادر الأهالى مدينتهم، ثم بدأ جنود المغول فى السلب والنهب كعادتهم فى كل مكان يذهبون إليه.

بناكت وخجند تحت سيطرة المغول

تحرك الجيش الثالث نحو فرغانة والوادى الأعلى من نهر سيحون، وسقطت مدينة بناكت بعد ثلاثة أيام، إذ استسلم سكانها للمغول بعد أن وجدوا أن لا طائل من المقاومة، وخصوصًا بعد وصول تعزيزات جديدة للجيش المغولى. وبعد أن سقطت المدينة، بدأ الزحف المغولى إلى مدينة خجند، وكان حاكم المدينة «تيمور ملك» رجلًا شجاعًا يتحلى بالذكاء وحسن التدبير والدهاء العسكرى، فكَبَّد المغول خسائر كثيرة فى كل قتال، واستمر الحال على ما هو عليه حتى ضعفت الموارد أمامه، فلم يجد سبيلًا إلا أن يغادر المدينة بعد أن أنهكته كثرة المعارك، ففر والتحق بجيش السلطان «خوارزمشاه».

«جنكيز خان» يدخل بخارَى

تقدم «جنكيز خان» بنفسه على رأس الجيش الذى يقوده، يصاحبه فى مهمته القتالية أمهر القواد وأشجع الجنود. وقد استولى على بعض المدن والقلاع التى فى طريقه وهو متجه إلى بخارَى، وضرب حصارًا شديدًا على بخارى وطلب من أهلها التسليم، وعندما وجد سكانها أنْ لا جدوى من وراء المقاومة، سلموا المدينة إلى «جنكيز خان» الذى دخلها هو وجنوده دون مقاومة تُذكر، وكان ذلك فى سنة 1219م، إلا أن قلعة المدينة ظلت تقاوم الوجود المغولى، وتكيل إليهم الضربات تِلْوَ الضربات حتى ضَجِرَ «جنكيز خان» من ذلك، فأمر جنوده بإحراق أبنية المدينة، وكان

معظمها من الخشب، وخلال أيام قليلة كان الدمار هو حليف المدينة. ثم جمع «جنكيز خان» سكان المدينة ـ بعد أن جردهم من أمتعتهم ـ وأمرهم بالرحيل دون شىء، فأصبحت المدينة ـ التى كانت مركزًا من مراكز الإشعاع الحضارى ـ أطلالًا خَرِبَةً بفعل «جنكيز خان» وجنوده من رؤوس الكفر.

سقوط سمرقند فى قبضة المغول

بعد أن استراح «جنكيز خان» من حملته على بخارى والاستيلاء عليها، بدأ يستعد لإخضاع سمرقند (حاضرة بلاد ما وراء النهر)، مصطحبًا معه الأسرى لتسخيرهم فى أعماله الحربية. وتقدم الجيش المغولى لمهاجمة سمرقند، وبعد يومْين من حصار المدينة ودراسة طرقها وكيفية شن الهجوم عليها، شن الجيش المغولى هجومًا كاسحًا على المدينة، إلا أن حامية سمرقند أظهرت بسالة شديدة فى الهجوم المضاد على الجيش المغولى، ونجحت بالفعل فى إجبار الجيش المغولى على التقهقر وفقًا لخطة موضوعة من قِبَل الجيش المغولى حتى يطمع العدو فيهم ويعتقد أن الفرصة أصبحت مواتية أمامه لتحقيق النصر على عدوهم، وسرعان ما شن المغول هجومًا مضادًّا من كل ناحية، وقطعوا كل منافذ المدينة أمام حامية سمرقند، فلم يجد الأهالى بُدًّا إلا التسليم بعد أن انعدمت فرصة المقاومة، خصوصًا وأن الجيش الخوارزمى بقيادة «طغاى خان» ـ شقيق «تركان خاتون» والدة السلطان ـ رفض قتال المغول باعتبار

أن المغول والأتراك من أصول واحدة. وسقطت المدينة!.. وكعادة المغول، فقد واصلوا سياسة السلب والنهب والقتل لإدخال الرعب فى نفوس الآمنين، وحملوا العمال والفنيين المهرة إلى منغوليا.

٢المغول ومواصلة تتبّع «خوارزمشاه»

بعد أن سقطت سمرقند، كلف «جنكيز خان» جيشًا قوامه ثلاثون ألف مقاتل بتعقب السلطان «محمد خوارزمشاه»، وطلب ألا يشغله أى شىء عن تحقيق الهدف الرئيسى، وهو القضاء على السلطان الخوارزمى. وفى عام 1220م، عبرت القوات المغولية نهر جيحون، ووصلت إلى بلخ، وتم تعيين حاكم من قِبَل المغول عليها، ثم أعلن حاكم هراة خضوعه للسلطان، أما السلطان «محمد» فقد عَزَمَ على ألّا يدخل فى أى معركة ضد المغول، وعندما علم أن القوات المغولية عبرت نهر جيحون من أجل الوصول إليه ـ وكان متجهًا إلى نيسابور ـ اتجه إلى العراق العجمى، وغادر المكان متوجهًا إلى الرِّىِّ، وقد انضم إليه ابنه «ركن الدين» على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل. وقد كان من الممكن ـ إذا صدقت النوايا والعزم ـ أن يستغل فرصة وجود هذا العدد من المقاتلين ويشتبك فى قتال مع المغول، إلا أن السلطان ـ فيما يبدو ـ كان قد انهزم من الداخل وافتقد الإرادة والرغبة فى تحقيق النصر على الأعداء.. والهزيمة من الداخل تعتبر أصعب أنواع الهزائم التى يمكن أن يتعرض إليها الإنسان!

«خوارزمشاه» والنهاية الأليمة

أسرعت القوات المغولية إلى اللحاق بالسلطان «محمد»، فغادرت هراة متجهة إلى خراسان حتى وصلت إلى طوس، وهناك بدأت فى تتبع أثر السلطان «محمد» واستولت على الرِّىِّ، وبعد ذلك فَقَدَ الخوارزميون الأمل فى الدفاع عن أنفسهم، وأخذ كل واحد منهم يفكر فى النجاة بنفسه، أما السلطان «محمد» فكان يفكر فى الهرب إلى بغداد، ولكنه عَدَلَ عن الفكرة بعدما علم أن المغول يلاحقونه، وقد لا يتركون له الفرصة لتنفيذ الخطة، فاختار اللجوء إلى مازندران، وأكرم أمراء مازندران ضيافته. أما المغول فقد اعتقدوا فى أول الأمر أن السلطان سوف يفر إلى بغداد، واستمروا يتعقبونه عدة أيام، ولكن عندما علموا أن السلطان قد فر إلى مازندران، بدءوا يستعدوا لجولة جديدة للهجوم على مازندران.. وعندما علم السلطان أن المغول قادمون، كان يتوارى فى مكان خفىّ بإحدى القرى الساحلية، ولكنه لم يلبث أن رأى المغول يهجمون عليه، وهنا ركب سفينة وأسرع فارًّا بها. ورغم أن سهام الأعداء كانت تمطر المكان دون هوادة، إلا أن القَدَر كان رحيمًا به فلم يُصَبْ بسوء. ومن حرص المغول على القبض عليه، ألقى كثير منهم بأنفسهم فى الماء من أجل اللحاق به والقبض عليه، ولكنهم غرقوا جميعًا. وقد وصل السلطان «محمد خوارزمشاه» أخيرًا إلى جزيرة سربنجانه، وكان بعض أهالى مازندران يقومون على خدمته، وتقديم كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب. وعندما

أنهكه المرض، استدعى أكبر أبنائه «جلال الدين منكبرتي» وحَمَّلَهُ الأمانة؛ إذ رأى فيه أنه هو الشخص الوحيد القادر على مقاومة المغول واستعادة أملاك الدولة الخوارزمية.

فتح إقليم خُوَارَزْم

وضع «جنكيز خان» نُصْبَ عينيه الاستيلاء على إقليم خوارزم وعاصمته جرجانية التى كانت فى الوقت نفسه حاضرة الدولة الخوارزمية، وكذلك حَرِصَ «جنكيز خان» على أسْر «تركان خاتون» أم السلطان، وكان ذلك بمثابة أمر حتمى ونهائى للقضاء على الدولة الخوارزمية.

فى البداية، حاول «جنكيز خان» الوقيعة بين «خوارزم شاه» و«تركان خاتون» نظرًا لحالة الخلاف بين السلطان ووالدته، فأرسل إليها رسالة مع رسول له يدعوها للاستسلام، وجاء فى الرسالة أنه فى حالة حرب فقط مع ابنها «خوارزمشاه»، وليس فى نيته أن يتعرض لها بسوء أو ينتزع ما تحت يديْها من ممتلكات، ثم طلب منها أن ترسل إليه موفَدًا يسلمه فرمان توليتها إقليم خوارزم وخراسان.. غير أن الشك تسرب إلى نفس «تركان خاتون» ولم تأنس لهذا الوعد، بل غادرت إقليم خوارزم مصطحبةً معها نساء السلطان وأبناءه، فعبرت نهر جيحون، واخترقت الطريق الصحراوى متجهةً إلى مازندران، حيث لجأت إلى إحدى القلاع الحصينة الموجودة بالمنطقة. ولكن المغول بدءوا فى حصار هذه القلعة خلال عام 1220م عندما كانوا يحاصرون السلطان

«محمدًا»، واستمر الحصار مدة ثلاثة أشهر حتى نفد الماء لدى المحاصَرين، واضطرت «تركان خاتون» للتسليم هى ومن معها، وقد سِيقَ الجميع إلى معسكر «جنكيز خان»، وبقيت «تركان خاتون» أسيرةً عند المغول، إلى أن صحبوها معهم عندما قرروا العودة إلى بلادهم، وظلت أسيرة، تعيش عيشة ذليلة، حتى ماتت فى سنة 1233م. أما أبناء السلطان، فقد تخلص منهم «جنكيز خان» على الرغم من صغر أعمارهم!

كان «جنكيز خان» يعلم جيدًا أهمية موقع خوارزم، وكثرة عدد سكانها، حيث تسكنها غالبية من الأتراك الكانكلى المشهود لهم بالشجاعة والبسالة فى القتال، ولذلك فإنه لم يدّخر جهدًا من أجل السيطرة على جرجانية عاصمة إقليم خوارزم، وأمر ابنيْه «جغتاى» و«أوكتاى» بالتوجه لشن هجوم على جرجانيه، ولم يكتف بذلك، بل طلب من ابنه «جوجى» أن ينضم لمساعدة أخويْه، حتى بلغ قوام الجيش المغولى مئة ألف مقاتل. وعندما اقتربت طلائع الجيش المغولى من أسوار المدينة، تجرأ عليهم الأهالى على اعتقاد أن عددهم محدود ومن السهل أن يتم القضاء عليهم، وكان المغول قد أوحوا إليهم بهذا الإيحاء حتى يخدعوهم، حيث تقهقروا إلى مسافة غير بعيدة، ثم ظهروا بأكملهم فجأة وكأن الأرض قد انشقت وأخرجتهم، فتدافع الجنود المغول من كل اتجاه وتمكنوا من القضاء على القوات الخوارزمية. وفى اليوم التالى، حاصرت قوات «أوكتاى» و«جغتاى» المدينة حصارًا شديدًا، وطالبوا الأهالى

بالاستسلام، ولكن عندما نما إلى علمهم إصرارهم على المقاومة، نصبوا المجانيق، وبدءوا فى قصف المدينة بالحجارة والأخشاب عبر المنجانيق. وفى ذلك الوقت كانت جيوش «جوجى» قد وصلت إلى الميدان وحاصرت المدينة من كل اتجاه، فأرسل القائد المغولى رسالة إلى سكان المدينة يعرض عليهم التسليم، ويعطيهم صَكًّا بالأمان مع عدم التعرض لهم بسوء، لكن حامية المدينة كانت مُصِرَّةً على المقاومة إلى أبعد الحدود، إلا أن الظروف المحيطة كانت أقوى منها، حيث قام المغول بتخريب سور المدينة حتى تَسْهُل عملية دخولها. وأمام الخطة التى وضعها «جوجى»، أدرك قائد الحامية أنْ ليس من المنطقى الاستمرار فى مقاومة غير مجدية، فعرض الصلح وتسليم قواته، لكن الأهالى كانوا أكثر شجاعة وإصرارًا على المقاومة، فمضوا فيها حتى ضاقت أمامهم السُّبُل، وفُتحت المدينة عُنْوَةً آخرَ الأمر بعد أن أزيل السد القائم على نهر جيحون لإغراق المدينة، فمُحِيتْ هذه المدينة من على ظهر الوجود، ودُمر ما فيها من مبانٍ ومرافق، وتعرَّض أهلوها للتنكيل والبطش الشديدين من المغول.

خُراسان تسقط تحت سطوة المغول

كان «جنكيز خان» حريصًا كل الحرص على السيطرة على أقاليم الدولة الخوارزمية فى أقصر فترة ممكنة؛ حتى يتمكن من القضاء على عظماء هذه الدولة، والعمل على بث الرعب والفزع فى نفوس الأهالى لكى يسرعوا فى الخضوع والاستسلام. وعلى هذا الأساس

أعد «جنكيز خان» حملته لغزو خُراسان، فاستولت قواته على نخشب وترمذ عبر نهر جيحون، ثم توجه إلى بلخ التى تقع على الضفة الغربية، وكانت فى ذلك الوقت من أهم المدن فى خراسان. وما إن وصلت قوات «جنكيز خان» إلى تلك المدينة حتى أبدى الأهالى استعدادهم للخضوع والتسليم، ولكن «جنكيز خان» عندما علم أن أهل المنطقة يؤيدون «جلال الدين منكبرتى» ابن السلطان «محمد خوارزمشاه» لم يثق فيهم، وأمر بإخراجهم من المدينة والقضاء عليهم مثلما كان يفعل فى سكان المدن التى يطيح بها. وترك مهمة السيطرة على خراسان إلى ابنه «تولوى» الذى ارتكب فيها من الجرائم والفظائع ما يَنْدَى الجبين من هَوْلِهِ، ووصل عدد من قُتل فى هذه المدينة سبعين ألفًا. وبعد الانتهاء من فتح خراسان، واصل «تولوى» الزحف إلى نيسابور، وكان هدفه الأول إقليم مَرْو عاصمة الإقليم، وقد استسلمت المدينة إلى «تولوى»، ولكنه غدر بها، واستباح دماء الأبرياء، واستولى على ما فيها من أموال. وبعد سقوط مَرْو، تقدم «تولوى» نحو نيسابور وحاصرها حصارًا شديدًا، ورفض شروط الصلح التى عرضوها، وكان الرفض بسبب قتل «طغار نويان» زوج ابنة «جنكيز خان» على يد جنود حامية نيسابور، فصمم «تولوى» على الانتقام لقتل زوج شقيقته، وبدأ الهجوم المغولى على المدينة عام 1221م من كل اتجاه حتى سقطت تحت أيديهم، وتجرد المغول ـ كعادتهم ـ من كل صفة إنسانية، وارتكبوا من جرائم القتل الكثير فلم يتركوا أحدًا

من سكانها على قيد الحياة، بل إن الحيوانات الأليفة لم تَنْجُ من شرهم. ونجح «تولوى» فيما بعد، فى فترة وجيزة تقدَّر بشهورٍ معدودة، فى فتح غالبية مدن خراسان.

«جنكيز خان» يغزو غزنة

استمر «جنكيز خان» فى حملته، وذهب من بلخ إلى الطالقان، وفعل بأهلها مثلما فعل بأولئك، ثم قاتله أهل باميان قتالًا شديدًا وقتلوا الأمير«موتوجن» ابن «جغتاى»، وكان من أحب الأحفاد إلى جده، فجَرَّ ذلك الموت على أهل المدينة، حيث اقتحم «جنكيز خان» المدينة هو وجنوده وخربوها بعد أن قتلوا كل مَن فيها حتى تصبح غير صالحة للسكنى.

السلطان «جلال الدين» والمغول

عندما أعد السلطان «جلال الدين منكبرتى» جيشه، خرج فى سنة 1221م إلى السهول المحيطة ببروان فى الشمال الشرقى من غزنة، وتقابل مع طلائع الجيش المغولى، وتمكن من قتل أكثر من ألف مقاتل منهم، وفر الباقون ليلحقوا بـ «جنكيز خان» لينقلوا إليه وقائع المعركة. وفى بروان، بدأ «جلال الدين منكبرتى» يستعد للمعركة التالية، أما «جنكيز خان» فقد أسرع بإرسال جيش كبير لمواجهة جيش «جلال الدين» قرب بروان، ودار قتال شديد بين الطرفين لم يُحسم فى اليوم الأول لأى طرف، وظهرت شجاعة «جلال الدين منكبرتى» بجَلَاء بعد أن تمكن من إلحاق الهزيمة

بصفوف المغول، إذ دارت الدائرة عليهم وقُتل منهم الكثير. لكن تأتي الرياح بما لا تشتهى السفن فى وقت القتال الشديد؛ إذ وقع خلاف بين قائدَيْن من قواد «جلال الدين منكبرتى» حول اقتسام الغنائم، ولم يتمكن «جلال الدين» من تسوية الخلاف بينهما، مما أدى إلى انسحاب أحدهما مع قواته من الميدان. وقد أدى ذلك إلى اضطراب فى صفوف جيش المسلمين اضطر معه السلطان «جلال الدين» إلى التقهقر، وكان جيش «جنكيز خان» يتعقبه، فأعد السلطان «جلال الدين» السفن ليعبر بها إلى نهر السند هو وجنوده، عازمًا الانتقال إلى الهند لعله يجد فيها مأمنًا، ولكن بحّارة السفن لاذوا بالفرار حين علموا بقدوم «جنكيز خان»، تاركين السلطان وجنوده على الشاطئ، فاضطروا إلى خوض معركة لم يستعدوا لها، ودار قتال فى معركة غير متكافئة ثبت فيها «جلال الدين» أمام هجوم المغول، وحمل بنفسه حملة صادقة على قلب الجيش المغولى كادت تزلزله، ولكن ميسرة جيش «جلال الدين» لم تتحمل ضربات المغول، فانكشفت وتبددت، ووقف السلطان على رأس 700 من رجاله يقاتلون جحافل المغول ببسالة وثبات ولكن دون جدوى، فاضطر أن يُوَلِّى وجهه شطر النهر وقذف بنفسه فيه، فتبعه مَن بقى من رجاله وعبروا النهر إلى الضفة الأخرى، ووقع فى الأسر ابنٌ للسلطان، وكان طفلًا فى الثامنة، ولكن «جنكيز خان» لم يرحم طفولته، فقتله بيده. وتحصَّن «جلال الدين» بنهر السند فى ظهره، وعندما وجد أن الظروف غير مواتية، وأن الأمر

أصبح خارج نطاق يديه، قفز بجواده إلى النهر هو ومن معه من المقاتلين، متجاوزًا النهر إلى الضفة الأخرى هو وقلة معه من الذين نجوا من نبال المغول أو الغرق وسط دهشةٍ من المغول لهذا البطل الخارق الذى لا تنقصه الشجاعة والإرادة، ولكن الأقدار تخلت عنه!.. وقد نجا مع أربعة آلاف مقاتل، وخاض عدة معارك فى الهند من أجل البقاء على قيد الحياة، وبدأ يفكر فى مرحلة جديدة من القتال عندما تحين له الفرصة مرة أخرى، واستطاع أن يكوِّن جيشًا كبيرًا فى محاولة لاستعادة عرشه المفقود من يد المغول الطغاة، ولكن القَدَر لم يمهله فرصة لتحقيق ما كان يرغب فى تحقيقه، إذ تكالبت عليه الظروف، وتمكَّن المغول من هزيمته نتيجة الفروق فى الاستعداد العسكرى.

«جنكيز خان» يعود إلى منغوليا

بعد أن اطمأن «جنكيز خان» إلى إحكام سيطرته على جميع المناطق الخوارزمية، وتشتيت الخوارزميين فى كل بقعة من بقاع الأرض حتى لم يعد لدولتهم وجود، قرر العودة إلى منغوليا، وذلك بعد أن وصلت إليه بعض الأخبار عن وجود تمرد ضده فى شمال الصين والتبت، وأن الظروف تستدعى وجوده هناك، فسلك طريق هراة، كما أمضى بعض الوقت فى هراة وولاية البنجاب، ومن بيشاور توجه إلى كابول وحدود نهر جيحون، ثم أرسل إلى أبنائه يستدعيهم للتشاور معهم حول مستقبل المناطق التى تمكَّن المغول من السيطرة عليها، فلحق به «جغتاى» و«أوكتاى»، وفى

ربيع عام 1223م انضم «جوجى» إلى أبيه فى صحراء "قلان باشى"، فعقد معهم «جنكيز خان» اجتماعًا موسَّعًا ـ يسمى بالمغولية "قوريلتاى" ـ للتشاور معهم ورسم خطط للمستقبل، ثم قام بشن هجوم على ولاية التانجوت فى شمال التبت نظرًا لخروج ملكها عليه، وعندما أدرك «جنكيز خان» أن ملك التبت لن تقوم له قائمة بعد هذه المعركة، ترك المكان وانصرف، وبينما كان ماضيا فى طريقه إلى منغوليا أصابه المرض، ويبدو أنه كان المرض الأخير، ولما أحس بدُنُوِّ الأجَل استدعى أبناءه، وأوصاهم باختيار «أوكتاى» خليفةً له نظرًا لما يتمتع به من رجاحة العقل وحسن الرأى، وأسلم «جنكيز خان» الروح فى أغسطس سنة 1227م، وحُمل جثمانه إلى منغوليا، ودُفن فى المنطقة التى يخرج منها نهر أونون وكرولين، وبقى مكان مدفنه سرًّا من الأسرار. أما «جوجى» ـ الابن الأكبر لـ «جنكيز خان» ـ فقد اختطفه الموت قبل موت أبيه بستة أشهر، وإنْ كان بعض المؤرخين يشير إلى أن «جوجى» قد لقى حتفه على يد أبيه بدس السم إليه فى الطعام، وذلك بعد أن عرف الأب أن ابنه قد خرج عليه.

أسباب زوال الدولة الخوارزمية

1. إن أبرز أسباب سقوط دولة الخوارزميين ـ بصفة عامة ـ هو ضعف العالم الإسلامى حينَ ذاكَ؛ حيث كان متفكك الأوصال، وتتنازعه كثير من القوى التى أعماها الطمع.

2. كان السلطان «خوارزمشاه» مغرورًا مستبدًّا، هدفه التوسع دون غيره، وهو توسع على حساب الدول الإسلامية وغير الإسلامية غير مبرَّر، فانشغلت الجيوش الإسلامية بمحاربة بعضها، الأمر الذى جعل العلاقات مبتورة بين هذه البلدان، وصَعَّبَ المهمة لصعود حاكم قوى يقود العالم الإسلامى للتصدى للخطر الداهم للمغول.

3. تدخُّل «تركان خاتون» والدة السلطان «خوارزمشاه» فى كل كبيرة وصغيرة فى شؤون الحكم، حتى إنها كانت تتخذ قرارات مناقضة للقرارات التى يتخذها السلطان، كما أطلقت يد أقاربها فى الشؤون المختلفة، على الرغم من عدم كفاءتهم فيما وُكِلَ إليهم من أعمال.

4. نشوب الخلاف بين الأمراء وقادة الجيش، واشتعال التنافس فيما بينهم، علاوةً على اعتماد الجيش الخوارزمى على المرتزقة، مما صَعَّبَ من مهمته فى القتال ضد المغول الذين كانوا يُفْنُونَ أنفسهم فى القتال استجابةً لأوامر قادتهم.

5. المعاملة الفظة من «خوارزمشاه» وقواده لأمراء وملوك الشعوب المغلوبة، حيث كانوا يُودِعُونَهم سجونًا مظلمة لا يعرفون الليل فيها من النهار، كما أنهم أغرقوا كثيرًا منهم فى نهر جيحون دون ذنب اقترفوه.

6. العداء الشديد بين «خوارزمشاه» والخليفة فى بغداد، ومحاولته الإطاحة بالخليفة، الأمر الذى أدى إلى إحجام كثير من الأمراء المسلمين عن دعم «خوارزمشاه» أثناء المواجهة مع المغول.

7. الصراع بين أبناء «خوارزمشاه»؛ فقد كان كل واحد منهم يرغب فى أن يكون سلطانًا خَلَفًا لأبيه، وكان هذا الصراع قد شَتَّتَ أمر المملكة؛ لأن الأمراء والقادة انقسموا على أنفسهم، فكان كل فريق منهم يؤيد أميرًا منهم على حساب الآخر.

8. تميُّز المغول بالسرعة وحسن التكتيك فى إدارة المعارك، الأمر الذى مَكَّنَهم من قهر كثير من البلدان التى دخلوها.

9. استبداد «جلال الدين منكبرتى» بالرأى، الأمر الذى كانت له عواقب وخيمة على سياسة الدولة، فقد خاض حربًا ضد أخيه «غياث الدين شيرشاه» انتهت بهزيمة الأخير، فى الوقت الذى كان هو فى أَمَسِّ الحاجة لاستثمار كل فرد من أفراد المملكة الخوارزمية والاستفادة منه فى قتال المغول؛ ولذلك كان الجيش الخوارزمى مجهدًا من الصراعات الداخلية بين «جلال الدين» وشقيقه «غياث الدين»، وانعكس ذلك على المعارك التى خاضها «جلال الدين» ضد المغول، فلم يجد دعمًا من قِبَل المسلمين، وكانت النهاية هروبه مطارَدًا، إلى أن قُتل على يد أحد الأكراد.

10. عدم وصول الدعم بصورة منتظمة إلى المناطق التى تحارب المغول، حيث اتخذ القادة المسلمون مواقف سلبية عبّرت عن ضعف الإرادة، إذ تركوا الشعوب تحت رحمة الغزاة المغول.

11. كان المغول على قدر من الذكاء؛ فقد وفروا غطاءً من الجواسيس ينقل لهم كل كبيرة وصغيرة داخل المدن التى عقدوا

النية على غزوها، وأدى هؤلاء الجواسيس دورًا كبيرًا فى تحطيم الروح المعنوية لدى سكان المدن وترويعهم من الوقوف ضد المغول؛ لأن مصيرهم فى النهاية سيكون الهزيمة والدمار. وكانوا يضربون لهم الأمثال من عاقبة ما وقع للمدن التى سقطت تحت قبضة المغول.

12. افتقد البلاط الخوارزمى إلى القدرة على الإدارة بسبب وجود مجموعة من المستشارين غير القادرين على تسييس الأمر بصورة ناجحة؛ فقد انشغل الوزراء فى بلاط «خوارزمشاه» بجمع الأموال ومحاولة الثراء فى أقصر وقت ممكن، حتى إن وصولهم إلى مناصبهم قد جاء عبر الطرق الملتوية، وكانت النتيجة: حالة الفوضى التى تعرضت إليها الدولة الخوارزمية وانتهت بنهاية مفجعة، حيث أتت سنة 1231م تحمل هجمة مغولية شرسة جديدة على الأمة الإسلامية. وقد تضافرت عوامل شتى جعلت هذا الاجتياح الجديد على نفس مستوى الاجتياح الأول الذى حدث فيما بين سنتى 1230و1233م، أو لعله كان أبشع وأسرع.



[4]
«أوكتاىْ خان»



ظل عرش «جنكيز خان» خاليًا لمدة عامين، إلى أن عُقد القوريلتاى المغولى، وانتُخب «أوكتاى خان» خاقانًا أعظمَ خلفًا لأبيه «جنكيز خان». وعندما تولى «أوكتاى خان» منصب الخاقان الأعظم، قرر المُضِىّ على سياسة أبيه، وعقد العزم على القضاء على الدولة الخوارزمية. وفي سنة 1227م، وقع أول احتكاك عسكرى بين السلطان «جلال الدين منكبرتى» والمغول، وذلك عندما خرجت قوة من المغول قاصدة الدولة الخوارزمية، وتوغلت فى أراضيها حتى أصبحت على مقربة من مدينة الرِّىّ، وتصدى السلطان «جلال الدين منكبرتى» للقوة المغولية، واستطاع أن يقضى عليها نهائيًّا. وفى سنة 1228م، نشبت معركة أخرى قرب أصفهان بين جيش السلطان «جلال الدين منكبرتى» وقوة مغولية، فانتصر فيها السلطان «جلال الدين منكبرتى» وبَدَّدَ شمل الأعداء. ونتيجةً للنصر الذى حققه السلطان «جلال الدين منكبرتى» فى كلٍّ من الرِّىّ وأصفهان، بدأ المغول فى إعداد جيش قوى، فكَلَّفَ الخاقان الأعظم «أوكتاى» أحد أبرز قادته العسكريين بالقيام بمهمة الاجتياح المغولى الثانى، وهوالقائد

«شورماجان»، فأعد جيشًا كبيرًا لمواصلة الزحف ومهاجمة البلدان الإسلامية.

ولقد شهد العالم الإسلامى خلال هذه الفترة - أى فى عام 1231م - مزيدًا من الفُرْقَة. وعلاوةً على ذلك، كان كل زعيم من زعماء المسلمين يَعتبر أن مملكته هى عالمه فقط، حتى وإن كانت صغيرة، وأن كل ما يدور خارج نطاق مملكته لا يعنيه بشىء، حتى إن بعض الممالك الإسلامية لم تكن إلا مدينة واحدة تحيطها بعض القرى!.. ولم يكتفِ الزعماء المسلمون بالفُرْقَة والتمزق، بل كانوا يتصارعون فيما بينهم، ويكيد بعضهم لبعض، ولم يكن أحدهم يأمن جانب الآخر، ولم تكن فكرة التحالف أو الوحدة مطروحة على أذهانهم مطلقًا.

كما شهد هذا العامُ النهايةَ المأساويةَ للسلطان «جلال الدين منكبرتى بن خوارزم شاه»، فعندما اجتاحت الجيوش المغولية بقيادة «شورماجان» البلاد الإسلامية اجتياحًا شديدًا، كانت على يقين تام من حالة التردى التى وصل إليها السلطان «جلال الدين» بعد تعرّضه إلى هزيمتيْن متتاليتيْن على يد «الأشرف بن العادل» حاكم ديار الجزيرة فى شمال العراق وجنوب تركيا. وأدت الطائفة الإسماعيلية دورًا فى تبليغ المغول الصورة الحقيقية التى عليها السلطان «جلال الدين» [**والإسماعيلية: طائفة من طوائف الشيعة فى غرب إقليم فارس، وتُعتبر عينًا من عيون المغول على ما يجرى فى الممالك الإسلامية**]، ومن ناحية أخرى، كانت ترغب فى كسب ود

المغول، تدفعها إلى ذلك رغبةٌ فى الانتقام من السلطان «جلال الدين منكبرتى»، وذلك للعداء المستحكَم بين الطرفين.

وجاءت الجيوش المغولية الكاسحة، مدمرةً كل ما يمكن أن تقدر عليه، وكان هدفها الرئيسى هو القضاء على «جلال الدين بن خوارزم شاه». والْتَقَاهُمْ «جلال الدين» فى موقعة دارت فيها الدائرة على جيش «جلال الدين»، فانهزم شر هزيمة، وأسرع بالفرار من أمام المغول. وبعد أن تمزق شمل جيشه، لقى نفس مصير والده السلطان «علاء الدين محمد بن خوارزمشاه» الذى لاقاه منذ أحد عشر عامًا.. فها هو ذا يفر من قُطر إلى قُطر، ومن مدينة إلى مدينة، والمغول يتعقبونه، حتى وصل «جلال الدين» إلى أرض الجزيرة بشمال العراق، وهناك تفرق عنه كل جنوده، وتركوه وحيدًا مطارَدًا يتنقل بمفرده بين القرى فرارًا من المغول، حتى قُتل غدرًا على يد أحد الأكراد الموتورين.

وقد ضم «شورماجان» شمال إقليم فارس (شمال إيران حاليًّا) إلى الإمبراطورية المغولية، وذلك فى سنة 1232م، ثم زحف بعد ذلك إلى إقليم أذربيجان فضمه إلى أملاكه. وبتلك الانتصارات المغولية اكتمل سقوط إقليم فارس كله فى يد المغول، باستثناء الشريط الغربى الضيق الذى تسيطر عليه طائفة الإسماعيلية الشيعية. ثم بدأ «شورماجان» يستقر فى هذه المناطق ويرسّخ أقدامه فيها، ويعزز من قدرات جيشه، ويدرس المناطق المحيطة، وما إلى ذلك من الأمور التى تقوى النفوذ المغولى فى هذه المنطقة.

واستمر «شورماجان» يوطد الحكم المغولى فى هذه المناطق خمس سنوات، من سنة 1233 إلى سنة 1238م، وخلال هذه السنوات الخمس لم تَثُرْ ثائرة المسلمين، ولم يتحرك أحدهم ضد الوجود المغولى وكأنهم ارتضوا هذا الواقع المهين، مع أن جيوش المسلمين كانت تملأ المناطق المجاورة لبلاد فارس وأذربيجان، وكذلك فى العراق والموصل ومصر والحجاز وغير ذلك من بلاد المسلمين، ولكن موقفها كان متبلدًا وكأن أمر المغول لا يعنيهم فى شىء، مع أنه من واجب المسلمين أن يتحركوا لنصرة أشقائهم فى الدين، إلا أن انعدام النخوة سيطر عليهم، ويعد هذا عملًا مخزيًا يَنْدَى له الجبين خجلًا!.. وللأسف، فقد فات عليهم أن الدائرة ستدور عليهم فى يوم من الأيام. أضف إلى ذلك أن المسلمين فى مناطق العراق والشام ومصر والحجاز كان غالبيتهم من العرب، على حين كان غالب المسلمين فى إقليم فارس وأذربيجان وشرق الدولة الخوارزمية من غير العرب. وقد وقع الاجتياح المغولى فى الفترة من سنة 1238 إلى 1248م، إذ بدأ «شورماجان» بعد هذه السنوات الخمس فى إقليمى فارس وأذربيجان فى سنة1248م فى الالتفاف حول بحر قزوين من ناحية الغرب لاستكمال فتوحاته.. واستطاع أن يسيطر على أقاليم أرمينيا وجورجيا (مملكة الكرج المسيحية) والشيشان وداغستان.. ثم بدأ جيش آخر من جيوش المغول بزعامة «باتو بن جوجى» فى قيادة الحملات المغولية شمال بحر قزوين، وذلك فى نفس السنة 1248م، وعمل على قمع

القبائل التركية التى تقطن حوض نهر الفولجا، ثم زحف بعد ذلك إلى البلاد الروسية الواسعة، وذلك فى سنة 1249م.. وارتكب الجيش المغولى الرهيب مذابح وحشية فى روسيا المسيحية، فاستولى على العديد من المدن الروسية، وذلك فى سنتى 1249 ـ 1250م، حيث سقطت تحت أقدام هذا الجيش مدينة "ريدان"، ثم "كولومونا" بعدها بأيام، ثم سقطت مدينة "فلاديمير" الكبيرة بعد صمودٍ استمر ستة أيام فقط، واقترن سقوطها بمذبحة بشعة، ثم سقطت "سوذال"، وبعدها توجهت الجيوش المغولية إلى أعظم المدن الروسية ـ "موسكو" ـ فتم اجتياحها وتدميرها، ثم سقطت بعد ذلك مدن "يورييف" و"جاليش" و"بريسلاف" و"روستوف" و"ياروسلاف"، ثم سقطت مدينة "تورزوك"، وبذلك احتل المغول روسيا بالكامل فى عامين فقط. وفى سنة 1251م، تحركت جيوش المغول غربًا بقيادة «باتو بن جوجى»، فاحتلت دولة أوكرانيا بكاملها، واجتاحت العاصمة "كييف" ودمرت كنوزها العظيمة، وسقط غالبية سكانها قتلى.

وفى سنة 1252م، زحفت فرقة من قوات المغول بقيادة «بايدر» إلى الشمال الغربى من دولة أوكرانيا، فدخلت مملكة بولندا، ودمرت الكثير من المدن البولندية، فلم يجد الملك البولندى إلا أن يستنجد بألمانيا حتى تقدم له الدعم ضد الهجوم المغولى الشرس، ودَعَمَ الألمان بولندا بجيش من الفرسان يقوده الأمير «هنرى» دوق "سيليزيا" الألمانية، واشترك مع ملك بولندا فى تكوين جيش

موحد لمواجهة المغول، غير أن هذا الجيش انكسر أمام المغول، ولقى هزيمة ساحقة على أيدى الجيوش المغولية بقيادة «بايدر».. وبذلك سقطت بولندا أيضًا تحت حكم المغول.

وفى نفس العام ـ 1252م ـ ترك «باتو»، قائد المغول المتمركز فى أوكرانيا، فرقةً مغوليةً فى هذه المنطقة، وانتقل بجيشه الرئيسى ليغزو مملكة المجر، والتقى فى مواجهة عسكرية ملكَ المجر، ودارت بين الطرفين معركة رهيبة انتهت بتدمير الجيش المجرى بالكامل، وبذلك سقطت المجر تحت أيدى المغول أيضا.

ثم نزل «بايدر» من بولندا فى اتجاه الجنوب لمقابلة جيوش المغول بقيادة «باتو» فى المجر، وفى طريقه للنزول اجتاح دولة "سلوفاكيا" وضمها بكاملها إلى دولة المغول، ثم تدفقت الجيوش المغولية إلى دولة كرواتيا فاجتاحتها، وبذلك وصلت الجيوش المغولية إلى سواحل البحر الأدرياتيكى (وهو البحر الفاصل بين كرواتيا وإيطاليا)، وبذلك يكون المغول قد نجحوا فى ضم نصف أوروبا إلى أملاكهم تقريبًا.

وكان من الممكن أن تتواصل الفتوحات المغولية فى أوروبا ـ بعد أن وصلت حدود دولة المغول إلى دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا ـ لولا أن الخاقان الأعظم للمغول «أوكتاى» مات فى هذا العام 1252م، فاضطر الأمير «باتو بن جوجى» إلى أن يوقف الحملات ويستخلف أحد قواده على المناطق المفتوحة ويعود إلى "قره قورم"

عاصمة المغول فى منغوليا للمشاركة فى اختيار الخاقان المغولى الجديد.

وقد اتسعت الإمبراطورية المغولية فى عهد «أوكتاى» اتساعًا كبيرًا عما كانت عليه فى عهد والده «جنكيز خان»، وكان لهذا الاتساع عدة مظاهر وأسباب، نوجزها فيما يلى:

ـ **أولًا**: وصلت حدود دولة المغول في عهده من كوريا شرقًا إلى بولندا غربًا، ومن سيبيريا شمالًا إلى بحر الصين جنوبًا.. وهو اتساع رهيب جرى فى فترة زمنية قياسية، وأصبحت قوة المغول بسببه فى ذلك الوقت هى القوة العسكرية الأولى فى العالم بلا منازع.

ـ **ثانيًا**: تولى قيادة المغول بعد «أوكتاى» ابنه «كيوك بن أوكتاى»، وقد كان هذا الخاقان الجديد يرى أهمية تثبيت الوجود المغولى فى البلاد المفتوحة بدلًا من إضافة بلاد جديدة قد لا يَقْوَى المغول على حفظ النظام فيها، وكذلك السيطرة عليها، ومن ثم فقد توقفت الفتوحات المغولية فى عهد الخاقان «كيوك خان»، وإن ظل المغول يحافظون على أملاكهم الواسعة.

ـ **ثالثًا**: سيطر المغول فى فتوحاتهم السابقة على النصف الشرقى للأمة الإسلامية، والتى ضمت معظم الأقاليم الإسلامية فى آسيا إلى دولتهم، وقضوا على كل مظاهرالحضارة فى هذه المناطق، كما قضى المغول تمامًا على أى نوع من المقاومة فى هذه المناطق الواسعة، وظل الوضع كذلك لسنوات كثيرة لاحقة.

ـ رابعًا: أما القسم الأوسط من العالم الإسلامى ـ والذى يبدأ من العراق حتى مصر ـ فقد بقى مُفَرَّقًا مشتتًا، لا يكتفى فقط بمشاهدة الجيوش المغولية وهى تُسْقِط معظم ممالك العالم فى وقتهم، وإنما انشغل أهله بالصراعات الداخلية فيما بينهم، وازداد تفككهم بصورة كبيرة!

ـ خامسًا: ذاق الأوربيون المسيحيون الويل على يد المغول كما ذاق المسلمون من قبل، وذُبح منهم مئات الآلاف، ودُمرت كنائسهم، وأُحرقت مدنهم، بل هُددوا تهديدًا حقيقيًّا بأن يصل المغول إلى عقر دار الكاثوليكية المسيحية فى روما.

ـ سادسًا: ومع أن المسيحيين رأوا أفعال المغول، إلا أن الملوك المسيحيين فى أوربا الغربية (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا) كانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة وسوف تقف عند فترة من الفترات، أما الحروب الصليبية ضد المسلمين فهى حروب دائمة لا تنتهى.. ومن ثم فقد كان ملوك الصليبيين على استعداد كامل للتعاون مع المغول ـ رغم الأعداد الهائلة التى قُتلت منهم ـ بدلًا من التعاون مع المسلمين!

إذن فلم تكن حروب المغول مع الصليبيين حروبًا عقيدية؛ فعقيدة المغول تتألف من أديان شتى.. ولذلك لم يَسْعَ قائد مغولى واحد لنشر هذه العقيدة فى البلاد المهزومة، وإنما كان هدف المغول فقط هو الإبادة والتشريد، وجمع المال وسَبْى النساء والأطفال..

ومَن كانت هذه صفته فلا يُتَوَقَّع له الاستمرار.. لذلك فإنه على الرغم من الصدمات التى تلقتها أوروبا على يد المغول، إلا أن أوروبا قد استمرت فى تجهيز حملاتها لغزو بلاد المسلمين من ناحية مصر والشام بدلًا من تكثيف الجهود لصد المغول، وفى ذات الوقت فإن حكام أوروبا الغربية الصليبيين لم ييأسوا من إمكانية التعاون مع خاقان المغول لسحق الأمة الإسلامية!

ـ **سابعًا**: أخذت عقائد الجيش المغولى تتغير بعد الحملات التى وجهوها إلى أوروبا؛ فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات مسيحيات، وبذلك بدأت الديانة المسيحية تنتشر فى البلاط المغولى، وساعد هذا على إمكانية التعاون بين المغول والصليبيين.

ـ **ثامنًا**: استمرت الحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين فى مصر والشام، وكانت مصر والشام فى ذلك الوقت تحت حكم الأيوبيين، ولكن كانت هذه هى آخر أيام الأيوبيين، وقد دار الصراع بينهم وبين بعضهم، وأصبح المسلمون بين شِقَّيِ الرَّحَى: بين المغول من ناحية، والصليبيين من ناحية أخرى.

ـ **تاسعًا**: فى سنة 1226م، تُوفى الخليفة العباسى «المستنصر باللـه»، وتولى الخلافة من بعده ابنه «المستعصم باللـه»، وكان غير خبير بالأمور السياسية، كما كان بلاطه يضم بطانة فاسدة، مما زاد من ضعف الخلافة، فكان آخر خليفة عباسى، وسقطت بغداد فى عهده بعد ذلك.

ـ عاشرًا: لم تَبْقَ حدود فاصلة بين المغول والخلافة العباسية فى العراق إلا شريط ضيق فى غرب إقليم فارس (غرب إيران الآن) كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية، وكانوا أهل حرب وقتال، ولهم قلاع وحصون، فضلًا عن طبيعة المكان الجبلية.. وكانوا على خلاف دائم مع الخلافة العباسية، وكراهية شديدة للمذهب السُّنِّى، ولذلك كانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيرًا؛ فمرةً يراسلون المغول، ومرةً يراسلون الصليبيين.. وكان المغول يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم؛ فالمغول ليست لديهم رغبة فى وجود أى قوة مناوئة لأحلامهم التوسعية فى أى مكان على سطح المعمورة.

وعندما تأكد الصليبيون فى غرب أوروبا من عدم وجود الرغبة التوسعية لدى «كيوك»، تجددت آمالهم فى التعاون مع المغول ضد المسلمين، فأرسل البابا «إنوسنت الرابع» سفارة إلى منغوليا فى سنة 1255م، وكان غرض السفارة هو التعاون مع المغول من أجل الحرب ضد المسلمين فى مصر والشام، واستقبل «كيوك» السفارة الصليبية بحفاوة بالغة لكثرة المسيحيين فى البلاط المغولى، ولكن عندما قرأ «كيوك» رسالة البابا التى يجدد فيها طلبه بالتعاون العسكرى ضد المسلمين - هذا إلى جانب طلب البابا إليه باعتناق الديانة المسيحية ـ اعتبر خاقان المغول أن هذا تجاوزٌ من البابا؛ إذ كيف يطلب من خاقان المغول أن يغير ديانته؟!.. فأعاد الخاقان «كيوك» السفارة الصليبية بعد أن حَمَّلَها برسالة إلى البابا يطلب منه

أن يجمع أمراء الغرب الأوروبى جميعًا ليأتوا إلى منغوليا لتقديم فروض الولاء والطاعة للخاقان المغولى، وبعد ذلك يبدأ التعاون.. وبالطبع رفض ملوك أوروبا الغربية هذا الطلب، وبذلك فشلت السفارة الصليبية فى تحقيق أهدافها. لكن البابا الكاثوليكى «إنوسنت الرابع» لم ييأس من فشل هذه السفارة، بل أرسل سفارة صليبية أخرى، ولكنه هذه المرة أرسلها إلى قائد قواد المغول فى مدينة "تبريز" بمنطقة فارس الملاصقة للخلافة الإسلامية، وكان اسمه «بيجو»، وذلك فى سنة 1257م، وقد لمس فيه البابا حبًّا للعدوان والهجوم، وعلم أنه من أنصار التوسع من جديد فى أراضى المسلمين. وقد لاقت السفارة ترحيبًا كبيرًا من «بيجو» الذى توقع أن هجوم الصليبيين على مصر والشام سوف يشغل المسلمين فى هذه الأقاليم عن الدفاع عن الخلافة العباسية فى العراق، وبذلك تَسْهُل مهمته فى اقتحامها.. ولكن لا يَخْفَى على أحد أن صلاحيات «بيجو» لم تكن تؤهله لاتخاذ مثل هذا القرار الاستراتيجى الخطير بالتعاون مع الصليبيين، وكان «كيوك» لا يزال على رأيه فى عدم التوسع، وعدم التعاون، مع الصليبيين إلا بعد خضوعهم له، ومن ثم فشلت أيضًا هذه السفارة الثانية.

فى هذه الأوقات، كان «لويس التاسع» ملك فرنسا يجهز لحملته الصليبية على مصر، والتى عُرفت فى التاريخ بالحملة الصليبية السابعة، وكان يجمع جيوشه فى جزيرة قبرص، وذلك فى سنة 1258م، وقد رأى «لويس التاسع» أن الأمل لم ينقطع فى

مستوى المسؤولية من الأحداث. وكان «منكو خان» بعد أن تولى العرش يفكر فى إسقاط الخلافة العباسية واجتياح العراق، ثم بعد ذلك اجتياح الشام ومصر.. وكان «منكو خان» قائدًا قويًا حازمًا، وساعده بصورة أكبر إخوتُهُ الثلاثة الذين كانوا عونًا له فى تحقيق أحلامه.. فأحد إخوته ـ وهو «أريق بوقا» ـ ظل معه فى "قره قورم" العاصمة ليدير معه الإمبراطورية الواسعة.. وأما الأخ الثانى «قبيلاى» فقد وُكِلَتْ إليه إدارة الأقاليم الشرقية، والتى تضم الصين وكوريا وما حولها من أقاليم.. وأما الأخ الثالث «هولاكو» فقد أصبح مسئولًا عن إدارة إقليم فارس وما حوله، مما جعله فى مواجهة الخلافة الإسلامية مباشرة.

ومنذ تسلم «هولاكو» قيادة قطاع فارس وهو يُعِدُّ العُدَّة لإسقاط الخلافة العباسية.. وكان يُعِد جيشه إعدادًا باهرًا وعظيمًا، ولا يترك صغيرة أو كبيرة حتى يحسب حسابها بدقة.. وعلى النقيض من ذلك، كان رد فعل المسلمين لهذا الإعداد ضعيفًا ولا يتناسب مع ما يُعِدُّه عدوُّهم. وإذا كان الوضع كذلك، فلابد أن ينتصر «هولاكو» على مناوئيه.

إذن، فماذا فعل «هولاكو» كى يُسْقِط الخلافة العباسية؟

بدأ «هولاكو» عمله فى سنة 1259م باجتهاد شديد وسرعة فائقة، ومع ذلك فإنه كان يتحلى بالصبر والأناة والإتقان فى كل خطوة.. فمع حقده الشديد، ورغبته المُلِحَّة فى تدمير الخلافة الإسلامية، واشتياقه الكامل لكنوز العباسيين، ومع كثرة جنوده

إمكانية التحالف مع المغول ضد المسلمين، فأرسل سفارة صليبية ثالثة من قبرص إلى منغوليا لطلب التعاون من «كيوك» فى هذه الحملة، وزَوَّدَ السفارة بالهدايا الثمينة والذخائر النفيسة.. لكن عندما وصلت هذه السفارة إلى العاصمة المغولية "قره قورم" فى منغوليا، فوجئت بوفاة خاقان المغول «كيوك»، ولم يكن «كيوك» قد ترك إلا أولادًا ثلاثةً صغارًا لا يصلحون للحكم فى هذه السن الصغيرة، فتولت أرملة «كيوك» ـ وكانت تدعى «أوغول قيميش» ـ الوصاية عليهم، ومن ثَم تولت حكم المغول ابتداءً من سنة 1258م ولمدة ثلاث سنوات.

توجهت إلى ملكة المغول الجديدة سفارة «لويس التاسع»، فاستقبلتها بحفاوة، لكنها اعتذرت عن إمكانية المساعدة فى الحملة الصليبية الآن لأنها مشغولة بالمشاكل الضخمة التى طرأت على مملكة المغول نتيجة موت «كيوك»، إضافةً إلى أن عامة قواد المغول لم يكونوا موافقين على حكم امرأة لدولة المغول العظيمة. وعُقد القوريلتاى سنة 1259م، وقرروا اختيار خاقان جديد للمغول، وبالفعل وقع الاختيار على «منكو خان» ليكون زعيمًا جديدًا للمغول.. وكان اختيار «منكو خان» زعيمًا لمملكة المغول بدايةَ تحول كبير فى السياسة المغولية، وبداية تغيير جذرى فى المناطق المحيطة بالمغول؛ فقد كانت لديه سياسة توسعية طموحة شبيهة بسياسة جده «جنكيز خان» المؤسِّس الأول لدولة المغول، وشبيهة أيضًا بسياسة «أوكتاى» الذى فُتحت أوروبا فى عهده. وللأسف الشديد، فإن أمراء المسلمين وقت تولية «منكو خان» لم يكونوا على

وتفوقه العسكرى الظاهر، إلا أنه ـ برغم كل هذا ـ لم يتسرع فى اتخاذ قرار الحرب ضد الخلافة العباسية، بل ظل يُعِد العُدَّة فى صبر حتى مرت خمس سنوات كاملة ـ من سنة 1259 إلى سنة 1264م ـ وهو يعمل فى نشاط لكى يكون جاهزًا تمامًا، فاهتم بالبنية التحتية، وتجهيز مسرح العمليات، وضمان استمرارية وسيولة الإمداد والتموين، كما قام بما يلى:

1. بدأ «هولاكو» فى إصلاح كافة الطرق المتجهة من الصين إلى العراق، وعمل على تهيئتها لاستيعاب الأعداد الهائلة من الجيوش المغولية، آخِذًا فى الاعتبار طبيعة تلك البلاد الجبلية، والموانع الطبيعية الصعبة.

2. أقام «هولاكو» جسورًا كثيرة وكبيرة على الأنهار التى تعترض طريق الجيوش، وبالذات نهرى سيحون وجيحون، ووَضَع قوات كافية تحمى هذه الجسور، وبذلك ضَمِنَ استمرار عمليات التموين، وفى ذات الوقت فإن هذه الجسور الطريق تَفتح خط رَجْعَة لجيوش المغول فى حال الهزيمة.

3. جهز «هولاكو» مجموعة ضخمة من الناقلات العملاقة صُنعت خصيصًا لحمل أدوات الحصار الكبيرة من الصين إلى بغداد، وبذلك لا يُسْتَغْرَقُ وقتٌ طويلٌ فى نقل المعدات الثقيلة عبر هذه المسافة الطويلة.

4. بدأ «هولاكو» فى السيطرة على كل المدن والمراكز التى تتحكم فى محاور الطرق، وبذلك تَجَنَّبَ حدوث أى مباغتة أو قطع لطرق جيشه أثناء سيرها.

5. قام «هولاكو» بشىء عجيب فيه ذكاء شديد، وهو إخلاء كل الطرق من الصين إلى بغداد من قطعان الماشية، سواء البرية أو المملوكة للسكان، وذلك لترك حشائش وأعشاب تكفى لطعام الأعداد الهائلة جدًّا من الخيول الخاصة بالفرسان، والدواب المكلفة بحمل العَتَاد الحربى والغذاء والخيام وغير ذلك من لوازم الحرب.. وبذلك فلن يحتاج إلى أن يحمل معه طعامًا للحيوانات، ولن يتعرض كذلك لمفاجأة غياب الطعام.

وعلى صعيد الاستعداد السياسى والدبلوماسى، بدأ المغول فى محاولة عقد الأحلاف السياسية مع بعض الأطراف وموازين القوى المختلفة، وذلك لضمان نجاح المهمة الكبيرة.. ويعتبر هذا تغيُّرًا كبيرًا فى السياسة المغولية التى لم تعرف قبل ذلك تحالفًا ولا دبلوماسية.. ولَـمَّـا كانت هذه نقطة تحوُّل فى السياسة المغولية، وفى ذات الوقت كانت هذه الأحلاف فى منتهى الخطورة، فقد تَكَفَّلَ بالقيام بهذه المعاهدات الخاقان الكبير «منكو خان» شخصيًّا، ولم يترك فيها حرية التصرف لـ «هولاكو»، وإنْ كان «هولاكو» من أكثر الناس الذين يُعتبر برأيهم فى هذا المجال.

ـ استقبل زعيمُ المغول «منكو خان» سفارةً صليبية أُرسلت فى سنة 1263م من قِبَل «لويس التاسع» ملك فرنسا الذى لم ييأس

من إمكانية التعاون مع المغول، وكان بالطبع يُكِنُّ حقدًا كبيرًا على المسلمين لهزيمته فى موقعة المنصورة سنة 1260م (أى منذ ثلاث سنوات فقط)، وكان يتزعم السفارة راهب دومينيكانى اسمه «وليم روبروك»، ومَثُل فعلًا بين يدى «منكو خان»، وبدأت المفاوضات للتعاون، ولكن سرعان ما فشلت هذه المفاوضات، والسبب أن «منكو خان» كان رجلًا صريحًا للغاية، فلم يكن دبلوماسيًّا بما يكفى لإبرام معاهدات أو عَقْد أحلاف، ولم يكن يعرف السياسة من وجهة نظر الغرب، ولم يكن يعرف الطرق الغربية الملتوية، وتنميق الألفاظ، واختيار العبارات، والحصول على ما يريد دون أن يشعر الطرف الآخر أنه يفرِّط، كما لم يكن يعرف شيئًا عن النفاق الأوروبى، أو الابتسامة الأوروبية التى تخفى وراءها كل الحقد.. لم يكن «منكو خان» يعرف كل ذلك، وإنما كان رجلًا بسيطًا واضحًا، مباشرًا فى كلامه، محدَّدًا فى رغباته. لقد قال «منكو خان» فى بداية مفاوضاته: إنه لا يقبل أن يكون فى العالم سيدٌ سواه.. وإنه لا يعرف كلمة "صديق"، إنما يعرف كلمة "تابع"؛ فأصدقاؤه هم مَن يتبعونه ويعلنون الولاء والطاعة له، وأعداؤه هم الذين يحاربونه، أو الذين لا يقبلون طاعته، وهؤلاء ليست بينه وبينهم مفاوضات، وإنما لهم سياسة بسيطة جدًّا: السيف والإبادة!

إذن فسياسة «منكو خان» هى سياسة "القطب الواحد" فى العالم؛ أى تقسيم العالم إلى دول "صديقة" (أى تابعة)، ودول

ـ أولًا: سوف يستفيد خاقان المغول من احتكاك ملك أرمينيا فى حرب المسلمين؛ فالعلاقة بين الأرمن والمسلمين قديمة، والأرمن على دراية تامة ببلاد المسلمين وطبائعهم، ولا ريب أن ما سيقدمه ملك أرمينيا من معلومات عن أوضاع المسلمين ستكون مفيدة للغاية للخاقان بما يمكِّن استغلالها فى الحرب ضد المسلمين.

ـ ثانيًا: إن خاقان المغول فى حاجة إلى مساعدين لإدارة المستعمرات الواسعة.. فإذا كان المدير من أهل البلد، وذا ولاء ووفاء له، فهو أفضل من الإدارة الخارجية، وأجدر على التحكم فى الموقف، وأقوى على امتصاص غضب الشعوب.

ـ ثالثًا: إن ما أقدم عليه خاقان المغول «منكو خان» من التعاون مع ملك أرمينيا يعد مدخلًا إلى علاقات جديدة مع المسيحيين يمكن أن يستفاد منها مستقبلًا عند استكمال فتوحاته فى داخل الشام ومصر، وقد يسهم ملك أرمينيا فى استئناف المفاوضات مع ملوك أوروبا، هذا إضافةً إلى أنه يعلم أن فى قلوب المسيحيين كراهية شديدة للمغول، وذلك بسبب المذابح البشعة التى ارتكبها المغول فى روسيا وشرق أوروبا.. وقد تكون فرصة عقد معاهدة مع ملك أرمينيا صفحة جديدة من صفحات التعاون، وذلك من أجل رعاية المصالح المشتركة.

ـ رابعًا: التحالف مع مملكة أرمينيا سيكون له مردود سيئ عند المسلمين؛ فالحرب مع المغول شىء، والحرب مع قوات "التحالف" شىء آخر. صحيح أن القوات المتحالفة مع المغول لا تمثل شيئًا

"مارقة" (أى معادية)!.. وبالطبع رفض ملك فرنسا أن يتحالف على أساس هذا الشرط، ومن ثم فشلت المفاوضات الأولى بين المغول وبين نصارى غرب أوروبا.

- وإذا كان المسيحيون فى غرب أوروبا وملوكُها القدماء يرفضون التعاون مع «منكو خان» على أساس التبعية، فهناك من الملوك الآخرين مَن قَبِلَ بذلك واعتبره نوعًا من الواقعية.. فلقد فكر «هيثوم» - ملك أرمينيا المسيحية - فى التحالف مع المغول على أساس التبعية كما يريد «منكو خان»؛ فملك أرمينيا يعلم قوة المغول؛ إذ إن بلاده قد دُمِّرت من قبل على أيديهم فى عهد «جنكيز خان» ثم فى عهد «أوكتاى».. كما يعلم أن دولته ضعيفة هزيلة لا تقارَن بأى حال من الأحوال مع دولة المغول ؛ فمساحة أرمينيا أقل من 30 ألف كيلومتر مربع.. ويعلم ملك أرمينيا - أخيرًا - أنه محصور بين قوات المغول من جهة وقوات المسلمين من جهة أخرى، والعداء قديم جدًّا بينه وبين المسلمين، وهو يتحرق شوقًا لغزو بلاد المسلمين وإسقاط الخلافة العباسية، وإنْ لم يقبل الآن بالتبعية للمغول فسيُرغَم عليها غدًا، وساعتها سيفقد مُلْكه بلا ثمن!

كل هذا دفع «هيثوم» ملك أرمينيا إلى أن يذهب بنفسه لمقابلة «منكو خان» فى "قره قورم" عاصمة المغول.. ويبدو أن «منكو خان» قد بدأ يتعلم طرق السياسة، وبدأ يتعلم الاعتماد على المظاهر والكلمات المُنَمَّقَة المختارة؛ فقد أقام «منكو خان» احتفالًا كبيرًا،

واستقبالًا رسميًا لـ «هيثوم» ملك أرمينيا، وعامَلَهُ كملك لا كتابع، وإن كانت كل بنود الاتفاق بينهما لا تصلح إلا بين سيد وتابع، وليس بين ملك وملك.. فبعد الاستقبال الحافل لملك أرمينيا (الذى قدَّم نفسه على أنه من رعايا «منكو خان»).. بدأ «منكو خان» يعطى وعودًا كبيرة وهدايا عظيمة إلى هذا الملك، شاريا بذلك ولاءه وتبعيته.. فماذا أعطاه «منكو خان»؟

لقد أعطاه ما يلى:

1. ضمان سلامة الممتلكات الشخصية للملك «هيثوم».

2. إعفاء كل الكنائس المسيحية والأديرة من الضرائب.

3. مساعدة الأرمن فى استرداد المدن التى أخذها السلاجقة المسلمون منهم خلال الحروب التى دارت بينهم.

4. اعتبار ملك أرمينيا كبيرَ مستشارى الخاقان الكبير «منكو خان» فيما يختص بشئون غرب آسيا.. وهكذا دخل السرور على ملك أرمينيا «هيثوم» بقربه من ملك المغول.

ولكن السؤال الذى يجب أن يُطْرَح: لماذا كان كل هذا العطف المغولى على ملك أرمينيا المسيحى؟

إن المتتبع للقوى العسكرية فى ذلك الزمن يجد أنه لا يمكن مقارنة القوة العسكرية لأرمينيا على الإطلاق بقوة المغول، كما أنها لا تقدِّم ولا تضيف إليها شيئًا يُذْكَر.

إذن، فلماذا عقد خاقان المغول معاهدة مع ملك أرمينيا؟

يُذْكَر فى الجيش المغولى، ولكن كلمة "التحالف" لها وَقْع خاص فى نفوس الناس.

ـ خامسًا: يمكن أن توظَّف القوات الأرمينية المتحالفة مع المغول فى بعض المهام الخطرة، والتى يحرص ملك المغول على تجنبها، وبذلك تكون الخسارة البشرية من نصيب الأرمن دون المغول.

والمراقب لهذه المباحثات التى جرت بين المغول والأرمن، يتبين له أن المغول لم يخسروا شيئًا على الإطلاق، وأن المباحثات كانت تُعتبر بين سيد يُمْلِى أوامره على المَسُود الذى لا يملك إلا الإذعان. ويتضح لنا أن قوة المغول هى التى أملت الشروط، وهى التى فرضت بنود المعاهدة، وهكذا عاد ملك أرمينيا «هيثوم» مبتهجًا ببنود الاتفاق الذى أبرمه مع خاقان المغول، وحظى بتقدير من شعبه نظرًا للسياسة الحكيمة التى استطاع من خلالها تجنيب بلاده ويلات الحرب.

ـ كان «منكو خان» يخطط لعقد تحالفات أيضًا مع أمراء الممالك الصليبية فى بلاد الشام، وكان لهم أكثر من مملكة فى أنطاكية وطرابلس وصيدا وحيفا وعكا، وذلك حتى ينشغل المسلمون فيما يجرى فى بلاد الشام، فلا يدافعون عن الخلافة العباسية إذا تعرضت للهجوم.

ولتشجيع هؤلاء الأمراء الصليبيين على التحالف، أدى صديقه الجديد ـ ملك أرمينيا ـ دور الوسيط بين خاقان المغول وبينهم،

فكان يقوم بدور السفير المغولى فى هذه المنطقة.. وقطع خاقان المغول وعدًا على نفسه بتسليم بيت المقدس إلى الأمراء الصليبيين فى الشام "هديةً" لهم فى حال تحالفهم معه (وكان بيت المقدس قد تم تحريره مرةً ثانية على يد الملك «الصالح أيوب» سنة 1255م، بعد أن كان أمراء الشام الأيوبيون قد سلموه هدية إلى الصليبيين سنة1238م).

ومع كل هذه الإغراءات، إلا أن أمراء الممالك الصليبية بالشام ساوَرَهم الشك، وترددوا فى قبول هذه الاتفاقيات، باستثناء أمير أنطاكية «بوهيمند» الذى وافق على هذا الأمر، وانضم فعلًا إلى خاقان المغول. أما بقية أمراء الصليبيين فى الشام فلم يستحسنوا هذه الفكرة؛ لأنهم (**أولًا**): يعرفون أن المغول لا يلتزمون بالعهود، ويمكن أن يبيعوهم بأبخس الأثمان، أو يتخلوا عنهم مقابل أى شيء، أو حتى دون مقابل. و(**ثانيًا**): لأنهم يستقرون فى قلب العالم الإسلامى، ويُعتبر خطر المسلمين عليهم كخطر المغول، بل لعل خطرهم أقرب، ومن ثَم لم يتحمس هؤلاء الأمراء للتحالف المعلَن مع المغول، ولكنهم مع ذلك لم يرفضوا الأمر صراحةً، وتعاملوا مع الموقف بدبلوماسية، مع طرح بعض كلمات الإطراء والمدح، واختاروا أن يقفوا على الحياد بشكل مؤقت إلى أن ترجح كفة أحد الفريقيْن: المغول أو المسلمين، وعند ذلك سوف يسارعون إلى أصحاب الكفة الراجحة يباركون لهم على النصر ويعلنون التأييد.

ـ عمد «منكو خان» أيضًا إلى عقد بعض الاتفاقات مع المسيحيين فى الشام والعراق، وهؤلاء ليسوا من الأمراء أو الملوك، ولكنهم من المسيحيين الذين يعيشون فى رعاية الإمارات الإسلامية فى الشام، أو فى حماية الخلافة العباسية فى العراق.. وهذه بالطبع لم تكن اتفاقات رسمية أو معلنة، وإنما كانت اتفاقات سرية مع بعض رؤوس المسيحيين، ومع بعض القساوسة، لتسهيل مهمة دخول المغول إلى هذه البلاد، ولنقل الأخبار من ـ وإلى ـ المغول.. وقد نجح «منكو خان» فعلًا فى الوصول إلى عدد كبير من هؤلاء المسيحيين، وعلى رأسهم بطريرك بغداد شخصيًّا، وكان اسمه «ماكيكا»، وكان من أهم العناصر التى ساعدت المغول فى دخول بغداد.

ـ أبرم «منكو خان» أيضًا اتفاقيات مع مملكة الكرج المسيحية (فى جورجيا الآن).. ومع أن تاريخ المغول مع مملكة الكرج كان تاريخًا مظلمًا، إلا أن تاريخ الكرج مع المسلمين لم يكن أقل ظلامًا، ومن ثم فضل مسيحيو الكرج التعاون مع عدوهم الجديد (المغول) ضد عدوهم القديم (المسلمين)، وذلك لأمرين، **أولهما**: أن المغول لهم القوة الأعلى، ويغلب على الظن جدًّا أن ينتصروا. **وثانيهما**: لأن الحرب بين المسيحيين والمسلمين حرب عقائدية أبدية، والكراهية أصيلة بين الطرفيْن، أما الحرب مع المغول فهى حرب مصالح.. فإذا تعارضت المصالح حدثت الحرب، وإذا اتفقت المصالح حدث الوئام والألفة والصداقة.. وقد اتفقت مصالح مملكة الكرج المسيحية مع مصالح المغول الوثنية.

- إبرام معاهدات مع بعض أمراء المسلمين لتسهيل ضرب بلاد المسلمين. ولم يعقد «منكو خان» هذه المعاهدات بنفسه، ولكن «منكو خان» كلف أخاه «هولاكو» بعقد هذه الاتفاقيات، فحضر «بدر الدين لؤلؤ» أمير الموصل إلى «هولاكو» ليتحالف معه، كما حضر سلطانًا السلاجقة «كيكاوس الثانى» و«قلج أرسلان الرابع» ليتحالفا أيضًا مع «هولاكو»، وكانا فى منطقة استراتيجية، فهما فى شمال العراق (تركيا الآن)، وتحالفهما يؤدى إلى حصار العراق من الشمال، وقد كان أسلوب «كيكاوس الثانى» فى التَّـزَلُّف إلى المغول مخزيًا جدًّا إلى الدرجة التى صدمت المغول أنفسهم. كما أن «الناصر يوسف» أمير حلب ودمشق، ومع أنه حفيد «الناصر صلاح الدين الأيوبى»، أدى دورًا مهينًا إلى الدرجة التى جعلته يرسل ابنه «العزيز» لا ليقدم إلى «هولاكو» فروض الطاعة فقط، بل ليبقى معه فى جيشه كأحد أمرائه!.. كما حضر أيضًا «الأشرف الأيوبى» أمير حمص ليقدم ولاءه لزعيم المغول. وكانت هذه التحالفات خطيرة للغاية؛ فهى - إضافةً إلى مهانتها - زادت جدًّا من قوة المغول الذين أصبحوا يحاصرون العراق من كل جانب، ويعرفون أخبار البلاد من داخلها.. وفوق ذلك، فإن هذه التحالفات قد أدت إلى إحباط شديد عند الشعوب التى رأت حكامها على هذه الصورة المخزية، الأمر الذى أدى إلى فتور العزائم الشعبية، وانعدام الثقة فى القادة الضعفاء.

- وقد تميز «هولاكو» بالحنكة والدهاء السياسى والدبلوماسى

بتقرّبه إلى أهم شخصية فى البلاط العباسى، أى الرجل الثانى فى الخلافة: «مؤيد الدين بن العلقمى»، وكان يعتنق المذهب الشيعى، بل كان شديد التشيع، ومن المثير للدهشة تصوُّر كيف وصل «ابن العلقمى» إلى هذا المنصب الكبير، وفى خلافة تحمل راية الدفاع عن السُّنَّة ؟!.. ولاريب أن هذا يرجع إلى ضعفِ سياسةٍ، وسوءِ إدارةٍ، من الخليفة «المستعصم بالله» الذى ترك «ابن العلقمى» فى هذا الموقع الخطير. كان «هولاكو» يجمع حوله نخبة من المستشارين يشاورهم فى الأمر، حيث أخبره بعضهم بأن «ابن العلقمى» شيعى متعصب ويكره أهل السُّنَّة، وهنا فتح معه «هولاكو» قنوات اتصال للوصول إلى اتفاق يسهّل مهمة «هولاكو» فى غزو بغداد، وبالفعل وافق «ابن العلقمى» على ما قدمه إليه «هولاكو» من اقتراحات تقوم على تضليل الخليفة بكل ما يدور حوله، وتقديم معلومات زائفة للخليفة، وبعد أن يتم فتح بغداد وتسقط الخلافة العباسية، لا يُنْتَقَص «ابن العلقمى» من مكانته فى حكم بغداد. استصوب «ابنُ العلقمى» رأىَ «هولاكو»، وساهم بكل ما أوتى من حيلة فى مساعدة «هولاكو» على تنفيذ مخططاته، مستغلًّا بذلك مكانته من الخليفة.

لقد بذل كلٌّ من «منكو خان» زعيم المغول وشقيقه «هولاكو» جهودًا دبلوماسية كبيرة قبل الإقدام على إسقاط الخلافة الإسلامية، ولم يتركا كبيرة أو صغيرة للظروف، بل دَرَسَا كل شىء دراسة جيدة حتى تكلَّل حملتهم على بغداد بالنجاح.

وباختصار نقول: إن جهود الدبلوماسية المغولية قامت على محور التعاون الكبير مع ملوك أرمينيا والكرج وأنطاكية المسيحية، كما أقنعوا أمراء الإمارات الصليبية فى الشام على اتخاذ موقف حيادى، ولم يكتفوا بذلك فقط، بل أقاموا تحالفًا سريًّا مع المسيحيين فى بلاد الشام والعراق، وانضم إليهم بعض الأمراء المسلمين، حتى إن الوزير الشيعى «ابن العلقمى» كان على رأس المتحالفين مع المغول. ولا ريب فى أن المساعى الدبلوماسية قد أدت دورًا واضحًا فى المخططات المغولية التى أسفرت فى النهاية عن تحقيق مرادهم لإسقاط الخلافة الإسلامية.

ومما يؤسَف له، أن المسلمين ـ بصفة عامة ـ كانوا يتابعون الأحداث التى تجرى على الساحة بفتور شديد وكأن شيئًا مما يجرى حولهم لا يعنيهم، كما سيطر عليهم عامل الإحباط الكامل!

الحرب النفسية على المسلمين

وإضافةً إلى ذلك، لم يَفُتْ «هولاكو» أن يهيئ الطرق حتى تتمكن الحملة من شق الطرق بسهولة ولا تَلْقَى أى معاناة عند تحركها، كما وفر الاحتياجات الضرورية من الغذاء وغيرها. وهنا نقول إن المغول أعدوا للحملة إعدادًا جيدًا، ولم يكتفِ «هولاكو» بذلك، بل شن حربًا نفسية على المسلمين حتى يدْخِل الرعب فى نفوسهم، وبالتالى يكسب المعركة قبل أن تبدأ.

كما قامت قواته ببعض الهجمات الشرسة فى المناطق القريبة من العراق، وكان الهدف من وراء هذه الهجمات زرع بذور الخوف

داخل النفوس، وتذكير الناس بأن المغول شعب مقاتل شرس وقادر على كسر شوكة عدوه، وليس معنى أن «جنكيز خان» قد مات أن يتوقف أبناؤه وأحفاده عن مواصلة الفتح وكسر قُوَى الأعداء، والتأكيد على أن «هولاكو» جاد فى حروبه ولا يعرف إلا لغة السيف، وأن مصير من يقف فى وجه عاصفة الهجوم المغولى الهوجاء هو الفَنَاء وتخريب الديار.

إن حملة المغول فى عهد «أوكتاى» لم تكن موجهة ضد بلاد المسلمين، وإنما كانت تستهدف روسيا وشرق أوروبا، ولذلك كان المسلمون بمَنْأًى عنها..ومن هنا بدأ «هولاكو» يكشف النقاب عن وجهه القبيح، ويبيِّن للمسلمين أن المغول ما زالوا مقاتلين أشداء، وأنهم قوة لا تقاوَم، ومصير من يقف أمام زحفهم ظلمة القبر لا غيره.

وفى سنة 1263م، قامت فرقة من الجيش المغولى بشن هجوم على مناطق الجزيرة وسروج وسنجار، وهى المناطق الواقعة فى شمال العراق، حيث أسفر هذا الهجوم عن إنزال خسائر ضخمة فى صفوف أهالى هذه المناطق بين قتلى وجرحى ومَسْبِيِّين، كما هاجمت هذه الفرقةُ قافلةً تجاريةً ضخمةً وتمكنت من الاستيلاء على أموال القافلة التى بلغت أكثر من ستمئة ألف دينار، ولا ريب أن ذلك كان خسارة ضخمة للخلافة العباسية، إذ استُخدمت هذه الأموال فى تجهيز جيش «هولاكو» الذى كان يُعِدُّ عُدَّتَهُ لغزو بغداد. وكانت فِـرَق الاستطلاع المغولية تواصل عمليات المراقبة ودراسة

طرق العراق وجغرافيته بشكل مرتب ومنتظم، وإلى جانب كل هذا تقوم ببث الرعب فى قلوب المسلمين.. ونجحت حرب الاستنزاف التى قام بها جيش «هولاكو» فى إحباط الروح المعنوية داخل الخلافة فى بغداد، فأنزلت الهزيمة الداخلية بالمسلمين!

ولجأ المغول لأسلوب الحرب الدعائية حتى يزلزلوا المسلمين ويجعلوهم غير قادرين على المواجهة، حيث انتشر فريق من أتباعهم داخل البلاد الإسلامية يروِّجون للقوة المغولية الهائلة التى لا يمكن أن يتصدى لها أحد، والإشارة إلى امتلاكها الأسلحة الهائلة، واستعداداتها المهولة لمواجهة أقسى الظروف القتالية، مع الإشارة إلى ضَعْف ما يمتلك المسلمون من سلاح، وأنه لن يَقْوَى على الصمود فى القتال ضد المغول.. وكل ذلك جعل المسلمين يتراجعون عن المواجهة وزعزع عزيمتهم.. كما انتشر بعض المغول ليقص على الناس نوادر من قدرة المغول القتالية، ويشير إلى أن قدرة النساء المغوليات فى القتال لا تقل عن قدرة الرجال، وأنهم يعرفون كل ما يدور فى المدن الإسلامية تمامًا، وأن قدرتهم على الوصول إلى المعلومات الدقيقة أمر ميسَّر، وعلى النقيض من ذلك لا يستطيع عدوهم أن يعرف عنهم شيئًا، حيث إنهم يمتلكون أجهزة استطلاع عالية الكفاءة تصل إلى أدق المعلومات دون أن يعرف عدوهم، ولدى رجالهم القدرة على التمويه والتخفى، ثم يشيرون بسخرية إلى حالة الضعف التى بلغتها الخلافة الإسلامية، وأنها غير قادرة على التصدى إلى أى هجوم يقع عليها. كل ذلك

أسهم فى تحقيق الإحباط لدى جماهير المسلمين، وجعلهم يعيشون حالةً من الرعب الدائم، ويتحسسون الأخبار حول الخطر القادم الذى لا بد سوف يعصف بهم كما سبق أن أصاب غيرهم. وعلاوةً على ذلك، ظهر ضعف مخابرات الخلافة الإسلامية. وعلى النقيض من ذلك، كان المغول عندما يقررون غزو بلدٍ مًّا، يقتحمونه قبل أن يشعر سكان هذا البلد بهم.

كما تميَّز المغول بأسلوب كانوا يتبعونه قبل غزو أى بلد، إذ كانوا يرسلون إلى هذا البلد رسائل التهديد والوعيد، حاملةً التهويل من حجم قدراتهم العسكرية التى لا تُقهر، والتقليل من شأن البلد التى سوف يغزونها. كما لجئوا إلى بعض شعراء وكُتَّاب المسلمين المتملقين، الراغبين فى كسب الأموال، بغَضِّ النظر عن الهدف من الرسالة التى يكتبونها، وقد اتبعوا ذلك مع عدد من ملوك وأمراء المسلمين. كما حاول المغول فى رسائلهم إقناع المسلمين بأنهم ليسوا من الكفار، بل إنهم من المسلمين، وإنهم يؤمنون بالقرآن، وادَّعوا أنهم ليسوا غزاة، ولكنهم خرجوا من بلادهم من أجل إنقاذ إخوانهم من ظلم الولاة المسلمين (وأن هدفهم هو تحرير العراق!). ومع أن وحشية المغول كانت جَلِيَّة أمام القاصى والدانى، إلا أن بعض أصحاب النفوس المتخاذلة كانوا مستعدين لتصديق أى شىء، وكانت الكلمات تقنعهم، فتجعلهم يتقبلون كل ما يُقْدِم المغول على فعله دون أدنى تحرك من جانبهم، ويجعلهم ينصرفون عن المواجهة، وهذه الفئة كانت تُلْقِى سلاحها فى خنوع

ثم تُقْبِل على الترحيب بالمغول الفاتحين المحرِّرين بدلًا من مواجهتهم كغزاة لا شاغل لهم إلا التدمير والقضاء على بلاد المسلمين، لأن رسائل المغول كانت تتناقض مع أفعالهم تناقضًا كاملًا.

ومن أساليب المغول لشن الحرب النفسية على المسلمين، الكشف عن تحالفهم مع الكرج وغيرهم، والحديث عن دعوة الملوك الصليبيين فى أوروبا إلى التحالف مع خاقان المغول، وإبراز دور هذه التحالفات وتصويرها فى حجم كبير للغاية، حتى يظن المسلمون بأن العالم كله يقف ضدهم، وهذا مما يصعِّب المهمة أمامهم ويُدْخِل الرعب فى نفوسهم، لأنهم لن تكون لهم طاقة على محاربة الجميع!

لجأ المغول أيضًا إلى إقناع فريق من أمراء المسلمين بالتعاون معهم، فلا ريب أن المسلمين إذا شعروا بأن القائد الذى يمسك بزمام الأمور يدافع عنهم، ويبذل الغالى والرخيص فى سبيل الأمة، فإن ذلك يرفع من روحهم المعنوية، بل يجعل الأمة كلها تلتف حوله، وتدافع عنه بكل ما تملك، لكن إذا كان الموقف مغايرًا لذلك ـ مثلما حدث من الوزير «ابن العلقمى» الذى كان يعد الرجل الثانى فى الخلافة العباسية ـ فإن هذا سيكون سببًا من أسباب الإحباط والانهيار، وفقدان الشعب كل مقومات الدفاع عن أرضه وعن وطنه. ولقد نجح المغول فى أن يبثوا الرعب والهلع فى نفوس المسلمين، وقد حققوا أهدافهم بشكل كامل، وعندما

وجدوا أن الأجواء مناسبة للهجوم على عاصمة الخلافة العباسية، هاجموا بغداد بضراوة منقطعة النظير.

إضعاف جيوش الخلافة العباسية

كان «هولاكو» قد عقد حلفًا سريًّا مع الوزير «ابن العلقمى» لإسقاط الخلافة العباسية فى بغداد، حيث كلفه «هولاكو» بإقناع الخليفة العباسى «المستعصم بالله» بتخفيض مقررات ميزانية الجيش، ومن ثَم تخفيض عدد أفراد الجيش، وعلاوةً على ذلك: إهمال شؤون التدريب العسكرى أو توفير الأسلحة. وقد أدى الوزير العميل مهمته على أكمل وجه تلبيةً لمطالب «هولاكو خان». وبالفعل خفض الخليفة «المستعصم» من مقررات الجيش، فانكمشت مقررات التسلح، وأصبح الجيش جيشًا رمزيًّا، وذلك بعد تسريح غالبية أفراده. وبعد أن كان عدد أفراد الجيش العباسى المسلم مئة ألف فارس، تم تسريح تسعين ألفًا منهم، وأصبح العدد عشرة آلاف فارس فقط فى سنة 1266م، وهذا ما يعنى تخفيضًا كبيرًا للغاية فى حجم الجيش المكلَّف بالدفاع عن الخلافة. وعلاوةً على ذلك: الحال التى وصل إليها الجنود من فقرٍ بلغ بهم حد السؤال، وإهمال الإعداد العسكرى وتدريب الجنود على أداء المهام القتالية، وفَقْد قواد الجيش لنفوذهم، فلم يَعُدْ يوجد مَن يمتلك القدرة على التخطيط والإدارة والقيادة، ونسى المسلمون فنون القتال، وظهرت السلبية وعدم الاكتراث بواجب الجهاد فى سبيل الله دفاعًا عن الوطن ضد المغول الوثنيين. أما الخليفة العباسى

«المستعصم بالله»، فقد فَقَدَ كل المقومات التى يمكن أن تجعل بلاده قوية يعمل لها العدو ألف حساب قبل أن يفكر فى مهاجمتها. ونشير هنا إلى أن «هولاكو» كان يمتلك مساحة عريضة من الصبر وحسن التصرف، حيث استمر فى التجهيز والإعداد مدة خمسة أعوام كاملة دون كلل، فلم تَفُتْهُ صغيرة أو كبيرة، بل وضع كل أمر فى نصابه، وذلك كله ـ دون شك ـ من سمات القائد الناجح الذى يريد أن يحقق أهدافه بقوة ويخرج بأدنى قدر من الخسائر. ومما يدل على حنكة «هولاكو» العسكرية وحسن استعداده:

ـ أنه قام بتعبيد كل الطرق التى تربط بين الصين والعراق حتى تستوعب الأعداد الكبيرة من الجيوش المغولية الكبيرة، وأمَر بتصنيع عربات خاصة لنقل المعدات الثقيلة، وكذلك تم إخلاء الطرق من الدواب، وذلك لتوفير العشب للخيول المغولية المغيرة.

ـ أن المغول أحكموا نطاق نفوذهم على كل المحاور المهمة فى المساحات الممتدة والواقعة بين الصين والعراق، وبذلك نجح «هولاكو» فى تأمين الجيوش المغولية أثناء زحفها صوب هذه الأراضى.

ـ أن «هولاكو» قد نجح فى توفير مساحة كبيرة من المعلومات عن أرض العراق، ومناطق التحصينات فى بغداد، وعدد جنود الخلافة، والوضع العسكرى، كما اطَّلَعَ اطّلاعًا كاملًا على تقارير الوضع الاقتصادى الإسلامى، وتوفرت له أيضًا معلومات عن

عناصر القوة والضعف فى الخلافة العباسية، وعن القيادات المؤثرة التى يمكن أن تؤدى دورًا فى اتخاذ القرار وتغيِّر سير الأحداث، كما اهتم بالتعرّف على الحالة النفسية لجماهير المسلمين ومدى طموحاتهم ورغباتهم.

كل هذه المعلومات توفرت له عن طريق جواسيسه ومخابراته المتميزة، إلى جانب فتح قنوات اتصال مع بعض الشخصيات المؤثرة على القرار فى البلاد الإسلامية، والتى وصلت أحيانًا إلى الأمراء والوزراء كما وَضَّحنا.

ـ أن المغول قد عقدوا معاهدات وتحالفات مع مسيحيى الأرمن والكرج وأنطاكية، الذين قطعوا عهدًا على أنفسهم بتزويد المغول بالمعلومات، إلى جانب تقديم الدعم العسكرى فى المعركة القادمة ضد الخلافة العباسية.

ـ أن المغول استطاعوا إقناع ملوك أوروبا الغربية بالتزام الحياد، وعدم التدخل فى القتال، وهددوهم بأنهم سوف يردون عليهم بالقوة فى حالة التدخل ضدهم.

ـ أبرم «هولاكو» اتفاقات مع غالبية أمراء الممالك الإسلامية المحيطة بشمال وغرب العراق (تركيا وسوريا) على أن يدينوا له بالتبعية الكاملة ويقدموا المساعدات، وذلك عندما ينشب القتال مع الخلافة العباسية. ومن المخجل أن معظم هؤلاء الأمراء كانوا من الأكراد أحفاد «صلاح الدين الأيوبى» بطل موقعة حطين، ومحطم غطرسة الصليبيين!

تنظيم الجيش المغولى

كانت للمغول عدة جيوش رئيسية موزَّعة بين آسيا وأوروبا، فنظمها «هولاكو» تنظيمًا ذكيا يخدم غرضه الرئيسى فى غزو بغداد، وذلك على النحو التالى:

ـ أولًا: الجيش المغولى الرئيسى، وكان يرابط منذ أعوام فى مناطق فارس وأذربيجان شرقَ العراق.

ـ ثانيًا: طلب «هولاكو» فرقة من جيش المغول المتمركز فى حوض نهر الفولجا الروسى، والتى كان يقودها القائد المغولى الشهير «باتو» (وهو القائد الذى فتح أوروبا)، فأرسل «باتو» فرقة على رأسها ثلاثة من أبناء أخيه، وكان «باتو» وعائلته قد أقاموا دولة مستقرة فى منطقة حوض نهر الفولجا، وأطلقوا عليها اسم "القبيلة الذهبية"، ورغم استقلالهم النسبى فى إدارة أمورهم، إلا أنهم كانوا فى النهاية يتبعون زعيم المغول «منكو خان».

ـ ثالثًا: طلب «هولاكو» فرقة من جيش المغول المكلَّف بفتح أوروبا، وكانت تتمركز على أطراف الأناضول (شمال تركيا)، فجاءت الفرقة وعلى رأسها القائد المغولى «بيجو»، وقد قطعت هذه الفرقة طريق الأناضول وشمال العراق واتجهت إلى بغداد، ولم تَلْقَ هذه الفرقة أدنى صعوبات أثناء المضىّ عبر هذا الطريق الطويل، لأن حكام المناطق الإسلامية كانوا قد تركوا المجال أمام القوات المغولية، فسارت فى أمان وسط إمارات الأناضول والموصل وحلب وحمص.

ـ تأكد «هولاكو» من انهيار الروح المعنوية عند المسلمين فى العراق وما حولها، يستوى فى ذلك الحكام والمحكومون.

ـ أقام «هولاكو» علاقات وثيقة مع وزير الدولة العباسية الأول «مؤيد الدين بن العلقمى»، وهو شيعى العقيدة، وضَمِنَ ولاءه التام له.

ـ تَيَقَّنَ «هولاكو» من ضعف جيش الخلافة العباسية وقلة حيلته، وأدرك أنه لن يستطيع بأى حال من الأحوال أن يدافع عن نفسه.

ـ عرف «هولاكو» كل صغيرة وكبيرة عن الخليفة «المستعصم بالله» خليفة المسلمين، واستوعب كل ما يريده من معلومات عنه، كما عرف كل نقاط قوته وضعفه.

واكتملت المعلومات أمام «هولاكو» فى سنة 1263م.. وهنا ـ وبعد خمس سنوات من الإعداد ـ أدرك «هولاكو» أن المناخ العام أصبح ملائمًا للهجوم المباشر على الخلافة العباسية وإسقاط بغداد.. فبدأ عملية حشد هائلة للجنود المغول ليجمع بذلك أكبر جيوش المغول على الإطلاق منذ قامت دولة «جنكيز خان»، بحيث كان الجنود المكلَّفون بحصار بغداد فقط أكثر من مئتى ألف جندى، هذا بخلاف الأعداد الهائلة من الجنود المنتشرة فى شمال العراق وشرقه، والقوات المكلفة بحماية الطرق وتأمين الإمداد والتموين، هذا غير الفِـرَق المساعدة للجيش، سواء فرق الإمداد والتموين، أو فِـرَق الاستطلاع والمراقبة.

ـ رابعًا: عندما طلب «هولاكو» من "صديقه" ملك أرمينيا المساعدة، جاءه «هيثوم» ملك أرمينيا بنفسه على رأس فرقة من جيشه .

ـ خامسًا: لم يتأخر ملك الكرج عن تلبية طلب «هولاكو» عندما طلب منه إرسال فرقة للمشاركة فى حصار العراق.

ـ سادسًا: جهز «هولاكو» فرقة متميزة من الرماة الصينيين المهرة الذين اشتُهروا برمى السهام المُحَمَّلَة بالنيران.

ـ سابعًا: كان على رأس جيوش «هولاكو» أفضل قواده، وكان اسمه «كتبغا نوين»، وقد كان مسيحيًّا، وعلاوةً على ذلك كان يمتلك المهارة وحسن القيادة، فتمكَّن من حُسْن التعامل مع الأعداد الكبيرة المسيحية المشارِكة فى الجيش، وبذلك ضم الجيش المغولى بين صفوفه ثلاثة من أمهر القادة العسكريين فى تاريخ المغول، وهم «هولاكو» و«كتبغا» و«بيجو».

ـ ثامنًا: بعث «هولاكو» برسالة إلى أمير أنطاكية «بوهيمند»، ولكنه لم يتمكن من أن يخترق الشام كله للذهاب إلى العراق، وإنما كان على أهبة الاستعداد للحرب، فإذا سقطت العراق شارك فى إسقاط الشام.

ـ تاسعًا: بعث «الناصر يوسف» ـ أميرُ دمشق ـ ابنَه «العزيز» ليكون فى جيش «هولاكو».

ـ عاشرًا: بعث أمير الموصل «بدر الدين لؤلؤ» فرقة لمساعدة الجيش المغولى، ومن المخجل أن يشارك المسلمون المشاركون فى جيش المغول فى حرب إخوانهم المسلمين، فقد شارك فى القتال إلى جانب المغول عراقيون باعوا كل شىء من أجل كرسى صغير أو إمارة.

واكتمل الجيش المغولى، وشَرَعَ فى الزحف من فارس تجاهَ الغرب إلى العراق، وبدأ «هولاكو» فى وضع خطة المعركة الحاسمة لفتح بغداد حاضرة الخلافة العباسية.

«هولاكو» يقضى على الطائفة الإسماعيلية

وجد «هولاكو» أن طائفة الإسماعيلية الشيعية، التى تتمركز فى الجبال بغرب فارس وشرق العراق، تمثل خطورة على الجيش المغولى؛ فطائفة الإسماعيلية مشهودٌ لها بالكفاءة القتالية، وبالحصون القوية، وهى طائفة لا تلتزم بالعهود.. وقد كان المغول يعلمون جيدًا أن الإسماعيلية كانت على خلاف شديد مع الخلافة العباسية، وأنها ـ رغم أنها كانت تتبادل المراسلة مع المغول لتعرّفهم بأحوال «جلال الدين منكبرتى بن خوارزمشاه» قبل مقتله فى سنة 1238م ـ فهم أيضًا من المنافقين الذين يتزلفون لأصحاب القوة.. ومع كل هذه الاعتبارات، فإن المغول لم يثقوا فيهم على الإطلاق، ولذلك حرصوا على القضاء عليهم قبل أن تتحرك جيوشهم صوب العراق. هذا إضافةً إلى ثأر قديم كان بين المغول والإسماعيلية، فقد قتلت الإسماعيلية ابنًا من أبناء «جنكيز خان»

اسمه «جغتاى»، وذلك أيام حملة «جنكيز خان» على فارس، منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولم يَنْسَ المغول هذا الثأر لأنه يخص ابن زعيمهم الأكبر، والذى جعل منهم مملكة لها شأن فى الدنيا، كما أن حكام المغول من نفس عائلة «جنكيز خان»، ويعتبرون الثأر من الإسماعيلية مسألة شخصية بحتة، حتى إن الجيوش المغولية كانوا يصحبون معهم فى حربهم ابنة «جغتاى» القتيل، وذلك لزيادة حماستهم فى القتال، ولكى تقوم بنفسها بالثأر لأبيها. كل هذا دفع المغول إلى العزم على التخلص من الإسماعيلية نهائيًّا.. وصدرت الأوامر من «قره قورم» بمنغوليا بإبادة هذه الطائفة من الوجود.

وتحركت الجيوش المغولية الهائلة صوب معاقل الإسماعيلية، واقتربت من أقوى حصونهم على الإطلاق ـ وهو حصن "ألموت" ـ فى غرب فارس، وما هى إلا أيام حتى تم تطويق الحصن المنيع، ولَـمَّـا شاهد زعيم الإسماعيلية «ركن الدين خورشاه» هذه الأعداد التى لا تحصى، طلب أن يقابل «هولاكو»، وقَبِلَ «هولاكو» ليختصر الوقت؛ فالإسماعيلية ليست إلا محطة صغيرة قبل الوصول إلى بغداد.. والتقى «هولاكو» «ركنَ الدين خورشاه» الذى أعلن خضوعه الكامل لـ «هولاكو» وتسليمه القلعة الحصينة، ولكن قائد القلعة رفض التسليم وأَصَرَّ على القتال، عاصيًا بذلك أمر قائده «ركن الدين خورشاه»، ففتح المغول القلعة عنوةً بعد ذلك بأيام، وذبحوا كل من فيها، وطلب «ركن الدين خورشاه» من «هولاكو» أن يرسله إلى «منكو خان» ليتفاوض معه

شخصيًّا فى تسليم كل قلاع الإسماعيلية فى مقابل بعض الوعود، وقد أرسله «هولاكو» فعلًا إلى «منكو خان» محاطًا بفرقة مغولية، ولكن «منكو خان» رفض أن يقابله واستحقره جدًّا، فقال: «إن هولاكو قد أخطأ بإرهاق الخيول المغولية الجيدة فى هذه الرحلة الطويلة من أجل هذه السفارة الهزيلة»، ثم أمر جنوده بإعادة «ركن الدين خورشاه» إلى فارس، وفى الطريق قُتل «ركن الدين خورشاه» ـ كما يقولون ـ "فى ظروف غامضة"!.. وإن كانت الظروف ليست بغامضة، فمن الواضح أن «منكو خان» قد أوصى بقتله، ولكن خارج البلاط المغولى لألَّا يُتهم البلاط بالغدر.

وبعد قتل «ركن الدين خورشاه»، قام «هولاكو» بخدعة فى مناطق الإسماعيلية، فقد أظهر لهم أنه على استعداد للاتفاق معهم على التعاون سويًّا لدخول بغداد، وطلب من قواد الإسماعيلية أن يقوموا باستدعاء الإسماعيلية من كل مكان حتى يقوم المغول بعملية إحصاء لأعداد الإسماعيلية، وعلى ضوء هذا الإحصاء سيكون الاتفاق، فإن «هولاكو» ـ كما يزعم ـ يخشى أن يضخّم الإسماعيلية أنفسهم للحصول على مكاسب أكبر، وبهذه الحيلة بدأ الإسماعيلية فى جمع كل أعوانهم حتى جاء رجالهم من العراق والشام، وعندما اجتمع هذا العدد الكبير، ارتكب «هولاكو» مذبحة يَنْدَى لها الجبين، وقَتَل كلَّ من وقع تحت يده منهم، ولم يَنْسَ أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى «سالقان خاتون» ـ ابنة «جغتاى» وحفيدة «جنكيز خان» ـ لتقتلهم بيدها أخذًا بثأر أبيها «جغتاى» المقتول على يد الإسماعيلية قبل ذلك.

وهكذا تم القضاء المبرم على الطائفة الإسماعيلية فى هذه المنطقة بأكملها سنة 1264م، ولم يَنْجُ منهم إلا مَن كان يعيش فى الشام أو العراق.

وبذلك أصبح الطريق آمنًا مفتوحًا إلى بغداد.. وبدأت الجيوش المغولية الرابضة فى فارس تزحف بنظام فى اتجاه عاصمة الخلافة، ووَضَحَ للجميع أن اللحظات المتبقية فى عمر العاصمة الإسلامية أصبحت قليلة للغاية.

وعُقد مجلس الحرب المغولى بمدينة "همدان" الفارسية (فى إيران حاليًّا) وقرر «هولاكو» فى هذا المجلس أن يقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

ـ الجيش الأول: ويتكون من الإمدادات التى سيرسلها «باتو» زعيم "القبيلة الذهبية" المغولية، إذ ستلحق به الفِـرَق المساعدة من مملكتى أرمينيا والكرج، وهذا القسم من الجيش سيخترق الجبال الواقعة فى غرب فارس صوب بغداد مباشرةً ومرورًا بمدينة كرمان شاه، وستكون مهمة هذا الجيش حصار بغداد من الجهة الشرقية.

ـ الجيش الثانى: وهو الجناح الأيسر لجيش المغول، وسوف يقوده «كتبغا» أفضل قواد «هولاكو»، وسيتحرك هذا الجيش بمفرده فى اتجاه بغداد أيضًا، ولكن إلى الجنوب من الجيش الأول. وقد تم فصل الجيشيْن حتى لا تكشفه المخابرات الإسلامية ـ إن

وُجدت ـ فتستطيع أن تُقَدِّر العدد الصحيح للجيش المغولى، هذا إضافةً إلى أن الطرق لا تستوعب هذه الأعداد الهائلة من الجنود، فضلًا عن أن هذا الجيش ستكون له مهمة اختراق سهول العراق، والتوجه إلى بغداد من جهة الجنوب، وحصارها من جهتها الجنوبية الشرقية.. ومع أن المسافة تبلغ 450 كيلومترًا، إلا أن «هولاكو» كان على درجة عالية من الحذر الكافى بحيث استطاع أن يخفى هذا الجيش عن عيون العباسيين، فلم يكتشف العباسيون الجيشَ إلا وهو على بُعْد كيلومترات معدودة من بغداد.

ـ أما الجيش الثالث: فكان هو الجيش المغولى الرابض على أطراف الأناضول (فى شمال تركيا الآن)، والذى كان مكلفًا بفتح أوروبا قبل ذلك، وعلى رأس هذا الجيش الزعيم المغولى الكبير «بيجو»، وكان على هذا الجيش أن يأتى من هذه المناطق الشمالية فى اتجاه الجنوب حتى يصل بغداد من شمالها، ثم يلتف حولها ليحاصرها من جهة الغرب، وبذلك تنحصر بغداد بين «هولاكو» شرقًا، و«كتبغا» من الجنوب الشرقى، و«بيجو» من الغرب، حتى يأتوا بغداد فى نفس الوقت الذى يأتى فيه جيش «هولاكو».. وقد وصل «بيجو» فى التوقيت المناسب إلى بغداد؛ دلالةً على دقة حساباته ومهارته فى التحرك بهذا الجيش الكبير. ولقد باغت «بيجو» الخلافة العباسية على بُعْد خمسين كيلومترًا فقط شمال غرب بغداد. أما الكارثة، فهى غياب المخابرات الإسلامية عن الساحة تمامًا، ومن الواضح أن الجيش العباسى كان لا علم له ولا دراية بإدارة الحروب أو فنونها!

أما المصيبة الأعظم، فهى أن هناك خيانة كبرى قد جرت من قِبَل أمراء الأناضول والموصل المسلمين.. هذه الخيانة مهدت الطريق أمام جيش المغول، ولم تُبْدِ أىَّ نوع من المقاومة، فمضى الجيش المغولى فى هدوء وكأنه فى نزهة، وبالطبع لم يرتكب فى طريقه مذابح كى لا يلفت أنظار الخلافة فى بغداد، ورضى الناس منه بتجنُّب شَرِّه، وخافوا أن يدلوا عليه كى لا ينتقم منهم بعد ذلك.

كانت الخيانة الكبرى من «كيكاوس الثانى» و«قلج أرسلان الرابع» أمراء الأناضول.. إلى جانب خيانة «بدر الدين لؤلؤ» أمير الموصل.. فـ «بدر الدين لؤلؤ» لم يكتفِ بتسهيل مهمة المغول، وبالسماح لهم باستخدام أراضيه للانتقال والعبور، بل أرسل مع المغول فرقة مساعدة تساعدهم على عملية "تحرير العراق" من حكم الخلافة العباسية!

ومن المخجل أن «بدر الدين لؤلؤ» قد ارتكب هذه الخيانة وهو يناهز من العمر ثمانين عامًا، وقد لحق به الموت بعد هذه الخيانة بأشهر معدودة!


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

[5]

سقوط الخلافة العباسية



كان «هولاكو خان» يمتلك أحلامًا عريضة، تقوم على تأسيس إمبراطورية واسعة، خاصةً فى الغرب، وربما يكون «منكو خان» ـ الخاقان الأعظم للمغول ـ هو الذى أوعز إليه بذلك حتى يدفعه للتحرك، أو يجعله يتأجج من الداخل، حتى يُخرج الحلم من رحم الخيال إلى أرض الواقع، ويُقَوِّى عزم أخيه من أجل الجاه والمُلْك.
وبعد أن وُفِّقَ «هولاكو» فى خطته الرامية للقضاء بنجاح على الطائفة الإسماعيلية، قرر أن يواصل حملاته بعزم وإصرار، على أن تكون خطوته التالية تحطيم الخلافة العباسية، والاستيلاء على بغداد، فعسكر «هولاكو» وجنوده فى همدان على مشارف حدود الخلافة العباسية، وقبل أن يبدأ الهجوم على الخلافة العباسية، بعث رسالة إلى الخليفة العباسى «المستعصم» دعاه فيها إلى تجريد حصون بغداد من الأسلحة، والحضور إليه شخصيًّا ليسلمه المدينة، وغَلَّفَ رسالته بالتحذيرات من مَغَبَّة عدم الاستجابة السريعة إلى طلبه، لأن هذا يعنى أن القوات المغولية سوف تهاجم بغداد، الأمر الذى سيترتب عليه بعدَ سقوطها التنكيلُ بالخليفة نفسه، وعدم الإبقاء على أحد فيها على قيد الحياة. كما اشتملت

الرسالة على تأنيب شديد للخليفة لعدم تقديم مساعدات وإرسال بعض الجند لمعاونة «هولاكو» فى القضاء على الطائفة الإسماعيلية.

وجاء رد الخليفة «المستعصم» شديد اللهجة وإنْ غَلَّفَهُ ببعض المرونة، فدعا الخان إلى التراجع عن هدفه من العدوان على بغداد، محذرًا إياه من مَغَبَّة الاعتداء على عاصمة الخلافة الإسلامية؛ ذلك لأن جنود الخليفة على أُهْبَة الاستعداد للدفاع عن الخلافة وصد العدوان عنها. ثم بعث «هولاكو» رسالة أخرى، يدعو فيها الخليفة إلى الاعتراف بالتبعية للإمبراطورية المغولية ودفع الجزية السنوية، وأن الخان يَعِدُهُ بالإبقاء عليه فى منصبه. فاعتذر الخليفة لعدم جواز هذا شرعًا، إلا أنه وعد بتقديم الأموال التى يطلبها «هولاكو» مقابل أن يعود من حيث أتى. ومما زاد من غضب «هولاكو»، قيام الناس فى بغداد بالفتك بالوفد المغولى. وعندما وصل رسل الخليفة إلى «هولاكو»، واطَّلع على رسالة خليفة المسلمين، بعث إليه رسالة أخيرة تحمل إنذارًا نهائيًّا فى أسلوب شديد اللهجة للغاية، فجمع الخليفة مستشاريه لاتخاذ الموقف المناسب للرد على رسالة «هولاكو»، واقترح الوزير الشيعى «ابن العلقمى» أن يقوم الخليفة بإرسال الأموال والتحف والهدايا إلى «هولاكو» فى معسكره مع الاعتذار إليه، وأن ينقش اسمه على العملة، ويذكر اسمه فى الخطبة، وبهذا يمكن أن يتراجع «هولاكو» عن موقفه من مهاجمة بغداد ولا يتعرض للخليفة بسوء، وكاد الخليفة أن يقبل هذا الرأى، غير أن الوزير «مجاهد الدين أيبك

الدوادار الصغير» رفض مقترحات الوزير «ابن العلقمى»، وأصر على الجهاد والقتال ضد «هولاكو»، ولم يكتفِ بهذا فقط، بل اتهم الوزيرَ «ابن العلقمى» بالتواطؤ مع «هولاكو» والتآمر معه على تقويض الخلافة الإسلامية، وهنا عَدَلَ الخليفة عن موقفه المؤيِّد لرأى «ابن العلقمى»، ووافق على رأى «الدوادار الصغير».

واستدعى «هولاكو» المُنَجِّمِين للأخذ برأيهم فى فتح بغداد، واستشار المُنَجِّمَ «نَصِيرَ الدين الطُّوسِىَّ» (وهو شيعى المذهب) فى فتح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، فبارك هذا خطته، إذ كان يمقت الخليفة العباسى ويعمل على إسقاطه.

«هولاكو» يحاصر بغداد

عندما يئس «هولاكو» من إقناع الخليفة «المستعصم» بتسليم بغداد، أصدر أوامره لجيوشه بالتحرك صوب بغداد، ودعا بعض قواته إلى التحرك من أطراف بلاد الروم عن طريق إربل والموصل، وذلك لمحاصرة بغداد من جهة الغرب، وكانت هذه القوات تمثل الجناح الأيمن للجيش المغولى، فالتقت بالفيلق الذى يقوده «هولاكو» من الناحية الشرقية، وهو الجيش الذى يمثل قلب القوات المغولية، أما الفيلق الذى يقوده «كتبغا» فيمثل الجناح الأيسر، وقد توجه من لورستان وخوزستان تجاهَ بغداد. وعسكر «هولاكو» وجيوشه فى الناحية الشرقية من بغداد، وأحكمت الجيوش المغولية الحصار الذى ضربته حول بغداد من كل اتجاه، وسدت كل المنافذ والطرق، إذ كانت مدينة بغداد تضم أربعة

أبواب فحسب. وقد بذل جيش الخليفة العباسى، والذى كان يقوده «مجاهد الدين أيبك الدوادار الصغير»، محاولاته لعرقلة تقدم جيش المغول بحيث لا يجعله ينجح فى الاستقرار فى مكان بعينه، ولكن ـ للأسف ـ لم يكن هذا الجيش يمتلك الخبرة الكافية فى القتال، ولاقَى الهزيمة من أول جولة، وقُتل منه عدد كبير من الأفراد، واضطرت فُلُول الجيش المنهزمة إلى أن تختفى خلف الأسوار. وقد بنى «هولاكو» خطته على أساس ضرب حصار محكَم حول بغداد من جميع الجهات حتى تسقط فى أسرع وقت ممكن دون جهد كبير. وكان «هولاكو» يعتقد أن الأمراء المسلمين سوف ينضمون إلى صف الخليفة العباسى ويقدمون إليه الدعم، أو يمدونه بالجند للدفاع عن عاصمة الخلافة، فحاول استمالة الفِـرَق التركية العاملة فى جيش الخليفة، إلا أنهم رفضوا إغراءات «هولاكو»، وأصروا على الدفاع عن بغداد حتى الموت. وقبل أن يبدأ «هولاكو» مهاجمة بغداد، أَوْعَزَ لرجاله القائمين على المنجنيق بقصف المدينة، فأصبحت المدينة تحت رحمته، وذلك فى يوم 6 من فبراير سنة 1258م.

الخليفة ومحاولة إنقاذ الخلافة من السقوط

شعر الخليفة بخطورة الموقف وانفلات الأمر من أيدى المسلمين، وأن مُلْكه يتهاوَى ويترنح، وأن سكان المدينة أصبحوا تحت رحمة المغول، وأنهم سوف يواجهون المصير الصعب مثل سكان بلاد ما وراء النهر وخُراسان، فبدأ يفكر فى سبيل لإنقاذ

الخلافة الإسلامية من السقوط فى أيدى المغول. وهداه تفكيره إلى محاولة استرضاء «هولاكو» حتى يتراجع عن تهديد عاصمة الخلافة، فأرسل إليه الوزيرَ «ابنَ العلقمى»، ولكن «هولاكو» لم يعِرْهُ أدنى اهتمام ورَدَّهُ خائبًا. وأخيرًا هاجم المغول بغداد، فاضْطُرَّ الخليفة العباسى للخروج من بغداد ومعه أهله وولده، وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، وكان ذلك فى يوم الأحد 10 من فبراير عام 1258م، بعد أن وعده «هولاكو خان» بالأمان. ودعا «هولاكو» الخليفةَ إلى أن يأمر الأهالى بإلقاء السلاح، فأطاع، ومن ثَم قام المغول باستباحة بغداد إلى ما يَقْرُبُ من أربعين يومًا، وأشعلوا النيران فى المدينة حتى طالت النيرانُ جامعَ الخليفة وأتت عليه، كما أحرقوا مشهد الإمام «موسى الكاظم» ومقابر الخلفاء، واقتحموا المكتبات، وجمعوا كل ما فيها من كتب وألقوا بها فى نهر دجلة حتى اسْوَدَّ ماؤه، وهدموا المساجد بهدف الاستيلاء على قبابها الذهبية، وسلبوا التحف والأساسات الموجودة فى قصور بغداد، وقتلوا المواطنين فى بغداد حتى بلغ عدد القتلى مليون شخص. وفى يوم 20 من فبراير عام 1258م، أصدر «هولاكو خان» أمرًا بقتل الخليفة «المستعصم بالله» - آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد - هو وابنه الأكبر وكل مَن معه من العباسيين.

وبعد أن فرغ «هولاكو» من أمر فتح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية هناك، فَوَّضَ أمر بغداد إلى «شمس الدين» صاحب الديوان والوزير «ابن درنوش»، ثم توجه إلى أذربيجان، وكلف

مستشاره الخواجة «نصير الدين الطوسى» ببناء مرصد فلكى فى مراغة سنة 1259م.

أثر سقوط بغداد على الدويلات الإسلامية

كان لسقوط بغداد أثر سيئ على أمراء وحكام المدن الإسلامية الذين اتخذوا موقف المتفرج على ما يحدث دون تقديم الدعم والمساعدة للخليفة فى بغداد؛ وذلك خشيةَ تعرُّضهم للمحنة على يد جيش «هولاكو»، كما أن الخلافات بين الدُّوَيْلات الإسلامية كانت على أَشُدِّها، ووصلت العلاقات فيما بين أمرائها إلى طريق مسدود، ففكر كل أمير فى مصيره، واختار أن يقدم الولاء والطاعة وتهنئة «هولاكو» على تدمير الخلافة العباسية، وكان من بين هؤلاء «بدر الدين لؤلؤ» أتابك الموصل، وكان قد قدم الدعم بالجند والخيول لـ «هولاكو» أثناء هجومه على بغداد، وكذلك قدَّم «أبو بكر السلغرى» الدعم إلى «هولاكو» فى هجومه على بغداد.

لكن.. لماذا سقطت بغداد ؟

هناك أسبابٌ عدة أدت إلى سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، وهى أسباب ترجع أساسًا إلى التنافر بين طبقات الشعب وفئاته، ثم إلى سياسة الخليفة العباسى نفسه التى كانت غير متوازنة وتتسم بضعف الإرادة والتنحّى عن المسؤوليات، حتى قَدِمَتْ جيوش «هولاكو» وقضت على الفئات المتنافرة.

أولًا: الخليفة العباسى

كان الخليفة العباسى مسلوبَ الإرادة ويغلب التردد على تصرفاته، فكان صاحب شخصية مستأنسة لا تصلح للاضطلاع بقيادة الجيش أو الزعامة السياسية، ولم يهتم ببناء الجيش ووضعه فى مكانه الطبيعى حتى يكون متأهبًا للقيام بدوره فى الدفاع عن دار الخلافة، كما لم يفلح فى استنفار أمراء وحكام البلدان الإسلامية، أو الشعب الإسلامى، فى التصدى للحملة البربرية التى قادها «هولاكو» على بغداد.

ثانيًا: أهل السُّنَّة

كان المذهب السُّنِّى هو المذهب السائد فى بغداد، وكان رجال المذهب السُّنى يحيطون بالخليفة، ويَعتبرون أنفسهم المدافعين عن بغداد، وقد وقفوا بالفعل فى مواجهة المغول بكل ما آتاهم الله من قوة، ولكن قبل عام واحد من من تعرُّض بغداد للمحنة على يد المغول، اشتعلت فتنة طائفية بين أهل السُّنة والشيعة، وقام أهل السُّنة ـ وعلى رأسهم «أبو بكر» الابن الأكبر للخليفة ـ بمهاجمة منطقة الكَرْخ الشيعية، وشارك فى الغارة رجال الشرطة والحكومة، مما زرع الحقد فى نفوس الشيعة عليهم.

ثالثًا: الشيعة

كان موقف الشيعة من هجوم المغول على العراق موقفًا مخجِلًا

للغاية، إذ نسوا أن العراق هو موطنهم، وأن واجبهم هو الدفاع عن الوطن ضد الغزاة.

رابعًا: أهل الذمة

كان اليهود والنصارى يعيشون فى حرية، ويَنْعَمون فى أحيائهم تحت ظلال الدولة العباسية، دون أن يتعرض إليهم أحد بسوء، بل ووصل بعضهم إلى أعلى المناصب بسبب تفوّقه. وعلى النقيض من ذلك كان موقف المسيحيين، حيث سالَـمُوا المغول، وتقرَّبوا إليهم، وتمكنوا من الحصول على عطف «هولاكو» بفضل تأثير زوجته «دوقوز خاتون» المسيحية، كما طلب «هولاكو» من البطريق النَّسْطُورِى أن يدخل المسيحيون إلى إحدى الكنائس حتى لا يتعرض إليهم المغول عند اقتحام بغداد.

نتائج سقوط بغداد

كان لسقوط بغداد صدمة قوية بعيدة الأثر على المسلمين وعلى ثقافتهم. وقد تجلت هذه الآثار فى عدة جوانب:

أولًا: ضعف الجانب الروحى

كان المسلمون يتطلعون إلى الخلافة باعتبارها رمزًا للممالك الإسلامية جميعًا، وكانوا ينظرون إلى الخليفة نظرة احترام، إذ كان نفوذه الدينى بعيدَ الأثر رغم أن الخلافة كانت قد فقدت الكثير من نفوذها الإدارى والأدبى والروحى، ولكن جاءت نكبة قتل الخليفة لتُنْهِىَ مكانة بغداد كعاصمة للخلافة الإسلامية، الأمر

الذى أصاب المسلمين فى سائر أنحاء العالم الإسلامى بصدمة عميقة.

ثانيًا: على الصعيد السياسى

كانت بغداد قبل غزو المغول قِبْلَةَ النشاط السياسى لكافة أنحاء المشرق الإسلامى، وكانت ـ رغم ضعفها ـ لا تزال تحتفظ بالسيادة السياسية، فكان اسمُها ماثلًا للأذهان بالنسبة لكافة المسلمين وحكام الدول الإسلامية. وعندما سقطت بغداد، أصبحت مجرد مدينة تابعة للإمبراطورية المغولية، وانتقل مركز بغداد الرُّوحى والسياسى إلى القاهرة التى بدأت تتزعم المقاومة الإسلامية، وتمكنت ـ بعد عاميْن فقط من سقوط بغداد ـ من أن تُلْحِقَ هزيمةً مُرَّةً بالمغول.

ثالثًا: على الصعيد العلمى

كانت بغداد مركزًا هامًّا للحضارة والتنوير، وكانت قِبْلَةَ العلماء والمفكرين وطلاب المعرفة من أرجاء العالم الإسلامى كافةً؛ إذ كانت غنية بالمدارس والمكتبات والعلماء الأَجِلَّاء. ولكن بعد سقوط بغداد، قُضِيَ على آلاف العلماء والمفكرين والفنانين، وأُحرقت الكتب والمكتبات ودُور العلم والمدارس، فتَدَنَّتْ مكانة بغداد من حاضرة للمعارف والثقافات، إلى مدينة ثانوية مثل بقية المدن فى الإمبراطورية المغولية المترامية الأطراف.



[6]

«هولاكو» وبلاد الشام


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

ما إن استكمل «هولاكو» مهمته بنجاح وفتح بغداد وأسقط الخلافة العباسية، حتى بدأ يُعِدُّ عُدَّتَهُ لمواصلة الزحف صوب بلاد الشام ومصر، فكلف «آرقونويان» - أحد قادة جيشه - بفتح إربل، وبذلك أصبح المغول على أبواب بلاد الشام. وكانت بلاد الشام منقسمة إلى ثلاث قُوًى متنازعة قبل الغزو المغولى، تتمثل فى: قوة الأوربيين والصليبيين، وقوة الأرمن المسيحيين، وسُلْطة الحكام المسلمين الذين يمثلون البيت الأيوبى، وكانوا يحكمون مدن مَيَافَارِقِينْ وماردين وحصن كيفا والكَرْك وحَمَاة وحِمْص. وعلى الرغم من أن هؤلاء ينتمون إلى البطل «صلاح الدين الأيوبى»، لكنَّ الفُرْقَة والصراع كانت لغة الحوار فيما بينهم.. ورغم أن ناقوس خطر المغول بدأ يدق فى كل مكان، إلا أنهم - للأسف - لم يقدّروا المسئولية أو عواقب الخلافات فيما بينهم، وهنا مَكْمَن الخطر الذى مَكَّنَ المغولَ من اصطياد الواحد منهم تِلْوَ الآخر بأدنى مجهود. أما مصر فقد كان يحكمها المماليك من الجركس وأتراك القَبْجَاق، وقد قرر المماليك التصدى للمغول بكل ما أوتوا من قوة؛ حفاظًا على مُلْكهم من ناحية، ودفاعًا عن الإسلام من ناحية أخرى.

رغم أن الملك «الناصر يوسف الأيوبى» (1252 - 1265م) - صاحب حلب ودمشق - كانت لديه القدرات التى تُـمَكِّنُهُ من التصدى للمغول، لكنْ من المخجل أنه عندما سقطت الخلافة العباسية فى بغداد على يد «هولاكو»، أرسل وفدًا وعلى رأسه ابنه «العزيز» لتقديم فروض الولاء والطاعة للغازى المغولى، بل إنه عرض على «هولاكو خان» مساعدته فى الاستيلاء على مصر وانتزاعها من أيدى المماليك الذين انتزعوا حكمها من البيت الأيوبى.

وجهز «هولاكو» جيشه الضخم من عاصمة مُلْكه فى مراغة ومعه حلفاؤه من أمراء أرمينيا وجورجيا، وقد بلغ قوام هذا الجيش مئة وخمسين ألف مقاتل، فهاجم ميافارقين - عاصمة ديار بكر - وانتزعها من يد السلطان «الكامل محمد الأيوبى»، وكان «الكامل» قد أبدى شجاعة منقطعة النظير فى مواجهة الغزو المغولى، ولم يُسَلِّم إلا بعد أن ضرب القحط بلاده، فلم يجد أمامه سبيلًا غير التسليم، إلا أن المغول قتلوه شرَّ قِتْلَة، ومَثَّلُوا بجثته حتى يكون عبرةً لمن يقف فى وجههم من الملوك والحكام المسلمين.

وتَقَدَّمَ الجيش المغولى بعد سقوط ميافارقين إلى ماردين التى كان يحكمها «الملك السعيد» الذى تصدى للعدوان المغولى، وكان عاقدًا العزم على المقاومة، إلا أن ابنه الخائن قام بقتله من أجل

التقرب إلى «هولاكو»، ولم يكتفِ بذلك فقط، بل سَلَّمَ المدينة إلى «هولاكو»، ولذلك نَصَّبَهُ «هولاكو» على المدينة بدلًا من أبيه.

وبعد سقوط ميافارقين وماردين، تقدَّم جيش «هولاكو» للزحف على حلب، وكان يحكم حلب الملك المعظَّم «توران شاه»، فبعث إليه «هولاكو» برسالة يدعوه فيها إلى قبول التبعية وتسليم المدينة حقنًا للدماء، وتجنبًا للهلاك الذى سيعود عليه هو وأهالى المدينة، إلا أن «توران شاه» أصر على المقاومة مَهْمَا كانت العواقب، فتَحَصَّنَ سكان المدينة خلف الأسوار، ووقفوا إلى جانب حاكمهم يقاومون الغزاة بكل ما آتاهم اللـه من قوة وعزم. ولَـمَّـا رأى «هولاكو» أن حلب قد استعصت عليه، حفر خندقًا حولها وكلف الرُّمَاةَ برَجْم سورها بالمنجنيق. وأخيرًا سقطت المدينة المنيعة فى أيدى المغول، فارتكبوا فيها أبشع المذابح، وأزهقوا الأرواح دون ذنب، ونهبوا ما فيها من قصور ومتاجر. وبعد تدمير مدينة حلب، صَحِبَ «هولاكو» قبل أن يغادرها مئة ألف من الأسرى، بينهم النساء والشباب.

وبعد أن سقطت حلب، جاء الدور على دمشق التى كان يحكمها «الناصر يوسف»، فجمع الكثير من القوات، حتى بلغ تعداد ما جمعه من قوات مئة ألف، وانضم إليه كثير من المتطوعين. وعندما اقترب المغول من منطقة "برزة"، انْفَضَّ المقاتلون وتركوا أماكنهم، وكذلك فر الملك «الناصر يوسف» ـ هو وأمير حَمَاة وأتباعهما ـ واتجهوا إلى غَزَّةَ بفلسطين، وتركوا المدينة وحدَها لتَلْقَى

مصيرها. ولذلك قرر سكان دمشق الاستسلام للمغول فى أعقاب هروب ملكهم والجنود المكلَّفين بالدفاع عن الحصون، فاتجه وفد من أعيان المدينة إلى معسكر «هولاكو» يعرضون عليه تسليم المدينة، ولكنَّ «هولاكو» اضطر إلى مغادرة معسكره والعودة إلى العاصمة المغولية فى أعقاب سماعه نبأ موت أخيه الخاقان «منكو خان»، فكلف واحدًا من أشهر قواده ـ وهو «كتبغا» ـ بمواصلة فتوحاته فى الشام ومصر، فتمكن من دخول دمشق فى الأول من مارس سنة 1258م دون مقاومة. وبعد أن سقطت دمشق فى أيدى المغول، انْفَضَّ رجال «الملك الناصر» من حوله وتركوه يهيم على وجهه فى الأرض.

وكان احتلال مصر يمثل آخر أهداف الخطة العامة للمغول التى أُقِـرَّتْ فى مجلس البلاط الإمبراطورى المغولى (القوريلتاى) فى العاصمة "قره قورم" سنة 1251م، وكُلِّفَ «هولاكو» بتنفيذها من قِـبَل أخيه «منكو خان» خاقان المغول الأعظم. وقد نجح «هولاكو» فيما كُلِّفَ به، فاحتل غرب إيران والعراق، وشرق الأناضول، والشام، ولم يَبْقَ له سوى مصر آخر معاقل الإسلام.

وبعد سقوط دمشق، شَرَعَ المغول فى الإغارة على مدن فلسطين، ناشرين الرعب والدمار فيها، فوصلت كتائبهم إلى الخليل وبيت جبريل والكرك وغزة، ولم تكن هناك قوة تدفعهم أو تحُولُ دون تحرّكهم، الأمر الذى جعل الاستيلاء على مصر قابَ قوسيْن أو أدنى.

«قُطُز» سلطان مصر

وُلد «قُطُز» أميرًا مسلمًا فى ظل الدولة الخوارزمية، فهو «محمود ابن ممدود» ابن أخت السلطان «جلال الدين بن خوارزم شاه»، لكنه اختُطف وهو فى سن مبكرة عقب انهيار الدولة الخوارزمية عام 1231م على يد المغول، وحُمل مثل غيره من الأطفال إلى دمشق وبِيعَ فى سوق الرقيق، فأُطلق عليه اسم «قطز». وقد ظل «قطز» عبدًا يُباع ويُشترَى إلى أن انتهى به المطاف بين يدىْ «عز الدين أيبك» أحد أمراء مماليك البيت الأيوبى بمصر.

تعلَّم «قطزُ» اللغة العربية، وحَفِظَ القرآنَ الكريمَ، وتَلَقَّى مبادئ الفقه الإسلامى، وعندما بلغ مرحلة الشباب، تَدَرَّبَ على الفروسية والمهارات القتالية وسُبُل القتال بالسيف والرمح وغيرها من فنون الحرب. ونظرًا لمهارته وشدة ذكائه، فقد ارتقى «قطز» سريعًا حتى صار قائدًا لجند «عز الدين أيبك»، ثم قائدًا للجيوش عقب تربُّع «عز الدين أيبك» على عرش السلطنة مع زوجته «شَجَر الدُّرّ». وعندما تولى «عز الدين أيبك» أمور السلطنة فى مصر، أصبح «قطز» الذراع اليمنى لـ «أيبك»، ولكن لم تكن الأوضاع مستقرة بالبلاد؛ فإضافةً لتهديدات المغول المستمرة وتوالِى زحفهم على الممالك الإسلامية، كان يَدِبُّ كثير من الخلافات الداخلية، والتى كان مصدرها «فارس الدين أَقْطَاى» ـ زعيم المماليك البحرية ـ هو والجنود الذين يتبعونه من المماليك البحرية، فقد عقد «أقطاى» العزم على التربُّع على عرش السلطنة ـ مَهْمَا

كانت الأساب ـ وانتزاعه من غريمه «عز الدين أيبك»، ولكنَّ هذا الأخير لم يكن غافلًا عما يُحَاك ضده من مكائد ومؤامرات، فقرر التخلص من «أقطاى»، واستدعى «قطز» وكَلَّفَهُ بالاضطلاع بهذه المهمة، كما ألقى القبض على عدد من أتباع «أقطاى»، ولكن «عز الدين أيبك» لم يَهْنَأْ طويلًا بالخلاص من غريمه «أقطاى»، فسرعان ما دبرت زَوْجُهُ «شَجَرُ الدُّرِّ» مؤامرة للقضاء عليه عندما علمت بنِيَّته الزواج عليها، ثم قُتلت هى من بعده، وتولى «المنصورُ نورُ الدين علىٌّ بن المعز أيبك» عرش السلطنة، وكان طفلًا صغيرًا لا يصلح لأمور الحكم، فعمت الفوضى والاضطرابات البلاد، علاوةً على الفتن التى كان يثيرها المماليك البحرية فى مصر، وإضافةً لأطماع أمراء الشام الأيوبيين فى الاستيلاء على الحكم، ثم تهديد المغول. عندئذٍ تحرك «قطز» وقرر الضرب بيد من حديد على الثورات الداخلية، بل على الاضطرابات جميعًا، فتمكَّن من إخماد ثورات أمراء المماليك البحرية حتى اضطرهم للفرار إلى الشام، كما قاد الجيش، وصَدَّ أمراء الشام الذين أرادوا غزو مصر، وعمل على دعم الاستقرار ونشر الأمن فى البلاد.

'عين جالوت' والخروج من المأزق

كان صدى طبول الحرب يتردد على حدود مصر، ولم يكن السلطان الصغير بقادر على مواجهة الخطر الجامح الذى يأخذ فى طريقه كل شىء، كما لم تكن هناك بوارق أمل تلمع فى الأفق، فكان على الأمير «قطز» أن يفعل شيئًا لإيقاف الزحف المغولى، ولا سِيما

أنه قد استشعر أنه رجل الساعة، وأن الأقدار ألقت عليه أعباء مسئولية الدفاع عن الإسلام، بعد أن رأى بعض أمراء المسلمين وقد بلغت بهم الأنانية وضيق الأفق حدًّ أن يعرضوا على «هولاكو» المساعدة فى مواجهة إخوانهم المسلمين.

فى طريق النصر

لم تكن لأحدٍ قدرةٌ على أن يواجه هذا الزحف الهائل من المغول بجيش خائر العزيمة، ونفوس مرتعشة، وإيمان ضعيف، وجبهة متصدعة، وآراء متناقضة، وأهواء شتى، فكان لا بد من توحيد الصف والاتفاق على الهدف، وإخلاص النية، وتقوية العزم لصد هذا الخطرالتخريبى.. والتغيير صعب، لكنه ليس مستحيلًا. وقد عقد «قطز» العزم على سلوك الطريق الوعر.. فالأمانى العظيمة فى حاجة إلى عزائم راسخة كبيرة! وبدأ «قطز» خطوات التغيير بعدد من الإجراءات، تمثلت فى:

1. التغيير السَّلمى لنظام الحكم

أعلن «قطز» نفسه سلطانًا على الديار المصرية فى يوم السبت الموافق 18 من ديسمبر عام 1259م، بعد أن قام بثورة بيضاء، حيث ألقى القبض فيها على السلطان الصغير وأمه وأخيه وحبَسهم فى القلعة، واتفق الحاضرون على توليته عرش السلطنة، فهو نائب السلطنة وقائد الجيش، ورضى به الأمراء الكبار لشجاعته وفروسيته. وبعد أن أمسك بزمام البلاد، بدأ إعادة

تشكيل أركان دولته بمن يثق فيهم من القادة الأَكْفاء، وبدأ استعداداته للحرب المرتقبة التى لم يَـحِنْ ميعادُها بعد.

2. تهدئة وإصلاح علاقات الدولة الخارجية

بعد أن ضَمِنَ «قطز» استقرار الأوضاع الداخلية فى الدولة، واطمأن إلى إخلاص أمرائه له، تحرك نحو تنقية الأجواء مع الملوك الأيوبيين فى بلاد الشام، وكان يساوره القلق من غدر «الناصر يوسف» صاحب دمشق وحلب، لأن الأخير كان يسعى إلى انتزاع مُلْك مصر من أيدى المماليك، وقد بلغت به الخيانة أنْ طلب من «هولاكو» بعد احتلاله بغداد أن يساعده فى صراعه ضد المماليك فى مصر. كانت جهود «سيف الدين قطز» قائمة على الاستعداد للمعركة مع المغول دون سواها، لذلك لم يَشْغَل نفسه بإثارة مشكلات وصراعات تَـحُولُ بينه وبين تحقيق هذا الهدف الذى عاش من أجل تحقيقه، ولهذا فقد سَطَرَ خطابًا إلى غريمه الملك «الناصر» وضَمَّنَهُ عبارات طيبة حتى يُذِيبَ الحقد الكامن فى نفسه، وأقسم له بأغلظ الأَيْمان أنه لا نية له فى أن ينازعه المُلْك أو أن يقاومه، وأنه نائبه بديار مصر، ومما جاء فى رسالته له: «**وإنِ اخْـتَـرْتَـنِـى خَدَمْتُكَ، وإنِ اُخْـتِـرْتُ قَدِمْتُ ومَنْ معىَ منَ العَسْكَرِ نجدةً لكَ على القادمِ عليكَ. فإنْ كنتَ لا تَأْمَنُ حُضُورِى، سَيَّـرْتُ لكَ العساكرَ بصُحْبَـةِ مَنْ تختارُهُ**». وبهذه الخطوة بَثَّ السلطانُ «سيف الدين قطز» الطمأنينة فى قلب خَصْمِهِ، وتفرغ تمامًا لإنجاز مهمته العظيمة التى سجلها له التاريخ.

3. المصالحة الوطنية مع المعارضة

كانت تعيش بالشام فى كَنَفِ الأيوبيين مجموعةٌ من الأمراء المماليك ممن يعارضون نظام الحكم فى مصر، كان على رأسها الأمير «بيبرس البندقدارى»، وكانت بينه وبين السلطان «قطز» خصومة شديدة. وعاش هؤلاء الأمراء فترة فى حماية السلطان «الناصر يوسف» صاحب حلب ودمشق. وعندما سقطت حلب، واقترب المغول من دمشق، سيطر الخوف على السلطان «الناصر»، ووَضَحَ تخاذُل الأمراء من حوله، فلم يقبل الأمير «بيبرس» هذا وغضب غضبًا شديدًا، وكانت فيه غَيْرَة وعِزَّة نفْس، وعندما سمع «بيبرسُ» أحدَ الحاضرين يتحدث عن قوة المغول ويُهَوِّل من قَدْر «هولاكو» انتقده قائلًا: «أنت سبب هلاك المسلمين!». ولم يجد «بيبرس» بُدًّا من إعادة فتح قنوات الاتصال مع خصمه السلطان «قطز» طالبًا منه الأمان، فاستجاب السلطان لـ «بيبرس» ومَن معه من الأمراء، ورحب بعودتهم إلى مصر؛ فلم يكن للسلطان «قطز» ـ وهو يستعد لمحاربة المغول ـ أنْ يَغْفَلَ عن الاستعانة بالكفاءات الحربية ولو كان أصحابها من معارضيه وخصومه. ولذلك فعندما وصل «بيبرس» إلى القاهرة، أحسن السلطان «قطز» استقباله، وأنزله بدار الوزارة، وجعله من المقرَّبين إليه ومن أبرز معاونيه، وكانت هذه العملية خطوة كبيرة فى سبيل توحيد الصف فى الحرب ضد المغول. وقد ضرب السلطانُ «قطزُ» بهذا مثلًا فى تغليب مصالح المسلمين على الأهواء والخصومات الشخصية، حتى ولو اكتوى بنار خصومه ومعارضيه!

4. تسييد القانون

لم يَسَعِ السلطان «سيف الدين قطز» ـ وهو فى هذه الفترة الحرجة ـ أن يتخطى القانونَ أو يتجاوز الشرع بدعوى أن البلاد تمر بمرحلة عصيبة، فأعطى قدوة طيبة للسلطان الذى يحترم القانون احترامًا بالغًا؛ فقد احتاج إلى أموال كثيرة لإنفاقها على الاستعدادات الحربية، ولم يكن بخزينة البلاد ما يكفى لهذه الاحتياجات، فأراد أن يفرض ضرائب جديدة على سكان مصر، لكن هذه المحاولة لقيت معارضة شديدة من العلماء والفقهاء، ووقف الشيخ الفقيه «العز بن عبد السلام» يقول للسلطان: «**إذَا لمْ يَبْقَ شىءٌ فى بيتِ المالِ، وأنفقتمُ الذهبَ ونحوَهُ منَ الزينةِ، وساوَيْتُمُ العامةَ فى الملابسِ سِوَى آلاتِ الحربِ، ولمْ يَبْقَ للجندىِّ إلا فَرَسُهُ التى يَرْكَبُها، ساغَ أَخْذُ شىءٍ منْ أَمْوالِ الناسِ فى دَفْعِ الأعداءِ.. إلَّا أنهُ إذَا دَهَمَ العدوُّ، وَجَبَ على الناسِ كافةً دَفْعُهُ بأموالِـهِمْ وأَنْفُسِهِمْ**». وامتثل «سيف الدين قطز» لرأى الفقهاء، فلم يَشْرَعْ فى جمع الأموال من المصريين إلا بعد أن أحضر هو والأمراء ما عندهم من الـحُلِـيِّ والأموال بين يدىِ الشيخ «عز الدين بن عبد السلام.» وكانت هذه خطوة فى تماسك البناء الداخلى للأمة فى صراعها مع المغول، حيث شعر الجميع أن مسئولية الدفاع عن الوطن تقع على كاهلهم جميعًا، وأنهم ينفقون ما لديهم من أموال ـ دون تمييز ـ لإعداد الجيش المتأهِّب لرَدْعِ العدو.

5. قبول المعركة

وبينما كان السلطان «قطز» مشغولًا فى الاستعداد للمعركة وترميم الجبهة الداخلية، وصل إلى القاهرة رسل المغول يحملون رسالةً فَظَّةَ العبارات ومغلفة بالتهديد والوعيد، ومما جاء فيها: «**إنَّا جُنْدُ اللـهِ فى أرضِهِ، خَلَقَنا منْ سُخْطِهِ، وسَلَّطَنا على مَنْ حَلَّ بهِ غَيْظُهُ، فلَكُمْ بجميعِ الأَمْصَارِ مُعْتَبَر، وعنْ عَزْمِنَا مُزْدَجَر، فاتَّعِظُوا بغَيْرِكُمْ، وسَلِّمُوا إلَيْنَا أَمْرَكُمْ قبلَ أنْ يَنْكَشِفَ الغِطَا، ويعودَ عليكُمُ الخَطَا، فنحنُ ما نرحمُ مَنْ بَكَى، ولا نَرِقُّ لِـمَنْ شَكَى، فَتَحْنَا البِلَاد، وطَهَّرْنَا الأرضَ منَ الفَسَاد، فعليكمْ بالهَرَب، وعَلَيْنا الطَّلَب، فأىُّ أرضٍ تُؤْوِيكُمْ، وأىُّ بلادٍ تحميكُمْ، وأىُّ ذلكَ تَرَى ولنا الماءُ والثَّرَى؟ فما لَكُمْ منْ سُيُوفِنَا خَلَاص، ولا مِنْ أَيْدِينَا مَنَاص، فخُيُولُنا سَوَابِق، وسُيُوفُنا صَوَاعِق، ورِمَاحُنا خَوَارِق، وسِهَامُنَا لَوَاحِق، وقلوبُنا كالجِبَال، وعَدَدُنا كالرِّمَال، فالـحُصُونُ لَدَيْنَا لا تَـمْنَع، والجيوشُ لقِتَالِنا لا تَنْفَع، ودُعَاكُمْ عَلَيْنَا لا يُسْمَع، لأنكمْ أَكَلْتُمُ الـحَرَام، وتَعَاظَمْتُمْ عنْ رَدِّ السَّلَام، وخُنْتُمُ الأَيْمَـان، وفَشَا فِيكُمُ العُقُوقُ والعِصْيَان**». وأمام هذا الخطر الداهم، عقد السلطان «قطز» مجلسًا للقيادة العسكرية ضم قادة المماليك؛ للتشاور بشأن الإجراءات المناسبة للرد على رسالة «هولاكو»، وكشف الاجتماع عن وجود اتجاهات مختلفة بشأن محاربة المغول، وهى:

ـ الانسحاب من مصر إلى قُطْر آخر.

ـ عدم الخروج لمقابلة المغول، والدفاع عن مصر عند دخول الجيش المغولى حدودها الإقليمية.

ـ المبادرة بالخروج لمواجهة المغول، على اعتبار أن الدفاع عن مصر لا يكون إلا من خارجها؛ أى فى فلسطين بالذات بوصفها مفتاح مصر وبوابتها الوحيدة فى الشرق.

وكان السلطان «قطز» يميل إلى الرأى الأخير، ويقف معه مساندًا الأمير «بيبرس»، فتَغَلَّبَ هذا الرأى، واتفق الجميع على قرار قبول المعركة. وبعد الانتهاء من الاجتماع، أمر السلطان «قطز» بإعدام الرسل الذين حملوا رسالة «هولاكو» إليه، وأبقى واحدًا منهم جعله من مماليكه! وكان هذا التصرف من جانب السلطان إعلانَ حرب، حيث نُودِيَ فى القاهرة وسائر أقاليم مصر بالخروج إلى الجهاد فى سبيل اللـه ونصرة الإسلام.

6. التعبئة العامة للمواجهة

عمت حالةٌ من الخوف والرعب سكانَ مصر وقادتَها إثر وصول أنباء اكتساح المغول للجيوش الإسلامية فى الشرق واحتلالها العراقَ والشامَ، ونزوح الفارِّين من وَيْلَات المغول إلى مصر، وكان هؤلاء يُهَوِّلُونَ فى الحديث عن المغول وشدة بَأْسِهم، وربما بالغوا فى وصف المذابح التى قام بها هؤلاء الغزاة، فأصبح ما يرددونه من أقوال أشبه بالأساطير التى لا يقبلها عقل ولا منطق! كل ذلك صَبَّ الفزع الشديد فى وجدان الشعب المصرى، وكان

يقع على عاتق السلطان عِبْءُ أن يزيله ويرفع من معنويات الناس ويغرس فيهم روحًا جديدة لا تعرف الخوف واليأس. وإلى جانب ذلك، تسربت حالة من الوَهَن إلى نفوس بعض كبار القادة أنفسهم، وكان يخضع لأوامر هؤلاء عشرات الآلاف من الجنود الذين يُخْشَى أن يترسخ فيهم هذا الضعف، فتصبح الأمة خانعة وتستسلم لأعدائها دون قتال. وفى سبيل تقوية الروح المعنوية وتعبئة الجنود للقتال، أقدم «قطز» على تنفيذ بعض الإجراءات الهامة، مثل مقاومة الروح الانهزامية التى تمثلت فى مواقف معظم القادة الذين حضروا مجلس الحرب الذى عُقد فى 24 من يوليو عام 1260م. وكان إعدامُهُ رسلَ المغول فى مساء ذلك اليوم حركةً بارعةً لتقوية الجبهة الداخلية وقَطْع الطريق على القادة المتردِّدين، حيث وضعهم أمام أمر واقع لا بد من مواجهته، إذ أظهر هذا الأمرُ عزمَ القيادة على الحل العسكرى لإنقاذ الوطن.

وكان للخطب الحماسية أثرها فى رفع الروح المعنوية، ومن ذلك قول «قطز» للأمراء الذين أَبَوُا الخروجَ وامتنعوا عن الرحيل معه: «**يا أمراءَ المسلمينَ، لكم زمانٌ تأكلونَ منْ بيتِ المالِ وأنتم للغَزَاةِ كارِهُونَ، وأنا مُتَوَجِّهٌ فِيمَنِ اختارَ الجهادَ بصُحْبَتِى، ومَنْ لَمْ يَخْتَرْ ذلكَ يَرْجِعْ إلى بيتِهِ، فإنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليهِ، وخطيئةُ حَرِيمِ المسلمينَ فى رِقَابِ المتأخِّرينَ!**».

وكان «قطز» يلتقى أحيانًا بالأمراء المؤيِّدين للخروج لقتال المغول، فيدبر معهم خطة الاجتماع العام بالأمراء المترددين، حتى

إذا عُقد الاجتماع وتحدث إليهم فى أمر القتال، كان التأييد والحماس للخروج من قِبَل أنصاره سلاحًا أدبيًّا للضغط على هؤلاء المتردِّدين وكَسْبهم لصف المعركة.

وفى أحيان أخرى، كان يخرج من عسكره ليلًا ويصيح فى الأمراء قائلًا: «**أنا خارجٌ أَلْقَى المغولَ بنفسى**»، حتى جاء اليوم الذى جمعهم فيه وحَضَّهم على قتال المغول، وذَكَّرَهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسَّبْى والحَرْق، فخَوَّفَهم من تكرار ذلك، وحَثَّهم على استنقاذ الشام من المغول ونَصْر الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبةَ الله، فضَجُّوا بالبكاء، وعزموا على النصرة والقتال.

ولم يكتفِ «قطز» بذلك، بل فَطَنَ إلى أهمية التعبئة العامة للشعب كله، فأرسل دعاةً يطوفون أنحاء البلاد لدعوة الناس للخروج إلى الجهاد. والنتيجة الطبيعية لهذه الإجراءات التى لجأ إليها «قطز» أنْ نجح فى الخروج من المأزق الذى أحاط بالأمة وحطم رُوح الخُنُوع التى حلت بالناس وجعلتهم يؤمنون بأن المغول قوة لا تقهر. ومن هنا يبرز الدور الذى أداه «قطز» قبل المعركة، وهو أعظم من دوره فيها؛ فالفوز بالمعركة لم يكن إلا حصادًا طبيعيًّا لما بذله من جهد وقام به من أعمال ذات دلالة واضحة على العزم والإصرار على دخول المعركة والانتصار فيها، وإن دلالته تحمل أساس التغيير والإصلاح عند حلول الأزمات الصعبة. وما تحقق من نصر فى "عين جالوت" لم يكن بطولةً

لسلطان مصر «سيف الدين قطز» فحَسْب، وإنما كان أيضًا بطولةً لأمراء مصر وأجنادها وعلمائها ومُفْتِيها والمُتَصَدِّرِين للتدريس بها، وكذلك أهل الزراعة والصناعة والتجارة؛ فهم عماد الدولة الذين جهزوا الجيوش وبَثُّوا رُوح التساند والتكافل.

وظهرت هذه البطولة العظيمة فى ثلاثة مواقف:

- **الموقف الأول**: تمثلت البطولة فيه فى التغلب على النُّـزُوع إلى التَّفَرُّق، والعمل على جَمْع الكلمة ووحدة الصف.

- **والموقف الثانى**: تمثلت البطولة فيه فى القرار العظيم.. قرار الخروج إلى مواجهة الغزاة.

وأهمية هذا القرار أنه يحمل معنى الـجَرْأَة فى مواجهة مَن يعتمدون فى غزوهم على نشر الرعب وتحطيم أى عزم على المقاومة، حتى بلغ من إرهابهم أن الأسرى كانوا يستسلمون - وهم كثير - لمغولىٍّ واحد!.. كما أنه يحمل معنى الحكمة؛ لأن البقاء فى مصر انتظارًا لقدومهم كان من شأنه أن يؤدى إلى تفرقة الكلمة بعد أن اجتمعت، وإلى نشر رُوح التخاذل والتعلق بالآمال الكاذبة رجاءَ حدوث المعجزات التى تغنى الناسَ عن البذل والتضحية.

- **والموقف الثالث**: تمثلت البطولة فيه فى القتال الذى جرى بمعركة "عين جالوت".. تلك المعركة التى انتهت بإحراز النصر العظيم على يد السلطان «قطز».



[7]

معركة عين جالوت



al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بدأ كل فريق يستعد للحرب التى لا بد ستقع إنْ عاجلًا أو آجلًا، فبدأ الجيش المصرى يستعد للحرب بالعَدَد والعَتَاد، وقد بلغ قوام الجيش المصرى 120 ألف فرد، كان غالبيتهم من أبناء الشعب المصرى المتطوعين، على حين تَشَكَّلَ جزء آخر من بعض الخوارزميين الفارِّين من أمام المغول، وكذلك بعض الذين تخلوا عن السلطان «الناصر يوسف» ولجئوا إلى مصر. وكان أتابك الجيش المصرى (القائد العام) فى ذلك الوقت هو «فارس الدين أقطاى الصغير». أما الجيش المغولى فقد ضم أفرادًا من قليقية (بمملكة أرمينية الصغرى) وجورجيين وعرب وسوريين.

وبدأت المعركة قبل شروق شمس يوم الجمعة الموافق 3 من سبتمبر سنة 1260م، وكانت مهمة الجيش المصرى فى هذه المعركة صعبة للغاية، وخاصة من الناحية النفسية؛ لأن الجيش المغولى لم يسبق له أن هُزم فى معركة من قبل، وإن هزيمة الجيش المصرى تعنى أن المغول سيدخلون مصر ويسيطرون على كل الشرق الأوسط، وبهذا تختفى الثقافة العربية والديانات السماوية!

سيطر القلق على الأمراء والجنود، وظهر هذا فى بدء القتال، ولكن قيادة الجيش المصرى الممثَّلة فى السلطان «قطز» والأمير «بيبرس البندقدارى» تبنت خطة رائعة، هدفها إدخال نوع من الخداع على قيادة الجيش المغولى حتى يتمكن الجيش المصرى من الانقضاض عليه. وقد بنى الجيش المصرى خطته على النحو التالى: أن يتقدم «بيبرس» بطلائع الفرسان ليناور الجيش المغولى حتى يتمكن من الإيقاع بهم فى كمين كبير يقوده السلطان «قطز» الذى كان يختبئ هو وجحافل الجيش فى التلال القريبة. ولم يفطن «كتبغا» - قائد الجيش المغولى - إلى أن الجيش المصرى كان قريبًا جدًّا منه، ولذلك فعندما شاهد طلائع المصريين التى كان يقودها «بيبرس»، اعتقد أن ما تحت إمرة «بيبرس» هو كل الجيش المصرى، ولذلك طمع فيه، وألقى بكل جيشه فى أرض المعركة حتى يحسمها سريعًا، فاشتبك «بيبرس» - القائدُ الفَذُّ - بالجيش المغولى وناوَرَه ببراعة، وفى النهاية تقهقر بقواته فى عملية انسحاب تكتيكى منظم فى اتجاه التلال، فتبعه الجيش المغولى على أمل القضاء عليه، وهنا خرج الجيش المصرى الرئيسى بقيادة «قطز»، فوجد المغول أنفسهم وقد وقعوا فى الكمين وأصبحوا تحت الحصار. أما المصريون فقد قاموا بدراسة المنطقة دراسة جيدة من كل الزوايا والأبعاد. وقد وصف مؤرخ المغول «رشيد الدين الهمذانى» تطورات المعركة بقوله: أطلق المغول وابلًا من السهام وحملوا على المصريين، فتراجع «بيبرس» وتقهقر جنوده، الأمر الذى دفع المغول إلى التقدم، وسقط الكثير من القتلى.. ولكن عندما اقتربوا من مَكْمَن

الجيش المصرى، خرج عليهم السلطان «قطز» بالجيش يهاجمهم بضراوة وكأنما الأرض انشقت عنهم، فهاجمهم من ثلاث جهات بصورة مباغتة، وهجم المصريون على جنود المغول وقاتلوهم قتالًا مستميتًا من الفجر حتى منتصف النهار، حتى خَرَّتْ مقاومة جيش المغول، ولحقت به الهزيمة آخر الأمر. صحيح أنْ تعرضَتْ ميسرة الجيش المصرى فى بداية المعركة إلى هجوم عنيف وكاسح، ولكن السلطان «قطز» صمد بصلابة منقطعة النظير، فخلع خوذته وألقى بها على الأرض غيرَ مُبَالٍ بالعواقب.

ومن شدة القتال والبسالة التى ظهر عليها الجيش المصرى، اضْطُرَّ الجيش المغولى إلى الفرار فى اتجاه "بيسان"، على حين كان الجيش المصرى من خلفه يتعقبه. وقد نجح المغول فى إعادة تنظيم جيشهم مرة أخرى بعد أن جمعوا فلولهم وعادوا مرة أخرى إلى ميدان القتال، فاشتبكوا مرة أخرى مع الجيش المصرى، ولكن تمكَّن جنود الإسلام من قهرهم وتحقيق النصر المبين، ففر المغول فى اتجاه سوريا.

وقد نجح الجنود المصريون فى أسْر «كتبغا» قائد الجيش المغولى الذى ظل يقاتل حتى وقع فى الأسْر، وبعد أن وقع فى الأسر ظل يتوعد المصريين قائلًا: إن «هولاكو» وجيشه سوف ينتقم من المصريين، فرَدَّ عليه السلطان «قطز» بقوله: إن المغول لا يتعاملون فى الحروب إلا بالمكر والخديعة وليس بالمروءة والشهامة. وأمر بتنفيذ حكم الإعدام فيه، فقُطع رأسه وأُرسل إلى القاهرة، كما نُفذ

الإعدام أيضًا فى «السعيد بن الملك العزيز»، والذى انضم لجيش المغول وحارب ضد المصريين، هو و«الأشرف موسى» ملك حِمْص وغيرهما من أبناء الشام. أما بقايا جنود الجيش المغولى المهزوم فقد اختفوا فى الأراضى الزراعية ووَلَّوُا الأدبار فى اتجاه سوريا، لكنَّ عامة الناس خرجوا عليهم وقتلوا كلَّ مَن تمكنوا منه، كما هرب «زين الدين الحافظى» والنواب السوريون المتحالفون مع المغول.

وعندما دخل السلطان «قطز» دمشق، عبَّر الأهالى عن ارتياحهم بتحريرهم من قبضة المغول وقتْل كل مَن تحالَفَ مع المغول فى دمشق. وقد كلف السلطانُ «قطزُ» «بيبرسَ» بقيادة فرقة من الجيش المصرى للقضاء على فُلُول المغول الهاربة فى حِمْص، كما نجح فى تبديد المَدَد العسكرى الذى أرسله «هولاكو» لتدعيم جيوشه ضد الجيش المصرى، وبذلك نجح فى تطهير البقعة الممتدة من حدود مصر إلى حدود نهر الفرات من المغول.

لقد كانت هزيمة تاريخية للمغول، إذ قضت على توسعاتهم فى الشرق الأوسط إلى الأبد، وكتبت الأقدار أن تكون على أيدى أبناء مصر. وكان من شأن هذا النصر أنْ هرب المغول من دمشق وبقية بلاد الشام إلى ما وراء نهر الفرات، ودخل السلطان «قطز» دمشق فى آخر شهر رمضان وأقام بقلعتها، وفى غضون أسابيع قليلة تمكن من السيطرة على سائر بلاد الشام، فأقيمت له الخطبة فى مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات فى أعالى بلاد الشام، وتمكَّن من إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع البلاد.

وبعدُ.. فإن السلطان «قطز» بعد ما حققه من نصر، قرر العودة إلى مصر فى 4 من أكتوبر عام 1260م، وبدأ موكب السلطان فى التحرك إلى الديار المصرية. وعندما وصل السلطان «قطز» إلى بلدة "القُصَيْر" من أرض الشرقية بمصر، بقى بها مع بعض خَوَاصِّه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، وضُربت للسلطان خيمته.. وهناك دُبرت مؤامرة لقتله نَفَّذَها شركاؤه فى النصر، وكان الأمير «بيبرس» قد بدأ يتنكر للسلطان ويُضْمِر له السوء، كما أشعل زملاؤه نارَ الحقد فى قلبه، فعَزَمَ على قتل السلطان، ووجد منهم عونًا ومؤازَرَة، فانتهزوا فرصة ابتعاد السلطان عن حرسه ورجاله ـ متعقِّبًا أرنبًا يريد صيده ـ وتتبعوه حتى لم يَبْقَ معه غيرهم، وعندئذٍ تقدم «بيبرس» ليطلب من السلطان امرأةً من سَبْى المغول، فأجابه إلى ما طلب، فما كان من «بيبرس» إلا أنْ تَظَاهَرَ بالتقدُّم لتقبيل يد السلطان شاكرًا فضله، وكانت تلك إشارة بينه وبين الأمراء، فلم يَكَد السلطان «قطز» يمد يده إليه حتى قبض عليها «بيبرس» بشدة ليَحُول بينه وبين الحركة، وفى تلك اللحظة المشئومة هَوَى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه، فانتهت بذلك حياة بطل "عين جالوت"!

ويذكر المؤرخون أن هناك عدة أسباب دفعت الأمير «بيبرس» وزملاءَهُ إلى ارتكاب هذه الفَعْلَة الشنعاء، فيقولون: إن «بيبرس» طلب من السلطان «قطز» أن يُوَلِّيه نيابة حلب، فلم يوافق، فأَضْمَرَ ذلك فى نفسه. ويذهب بعضهم إلى أن وعيد السلطان لهم وتهديدهم ـ بعد أن حقق النصر وثبَّت أقدامه فى السلطة ـ كان

سببًا فى إضمارهم السوء له وعزمهم على التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم. وأيًّا ما كانت الأسباب، فإن السلطان قد لقى حتفه غدرًا، وقُتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر.. وإذا كان «بيبرس» قد قتل «قطز»، فإن هذا لا يعنى أن «بيبرس» شخصٌ غادرٌ بطبعه.. لكنها لعبة القوة!.. وقد سبق أن قتل «قطزُ» «أقطاىَ» أستاذَ «بيبرس».. وكان هروب «بيبرس» إلى بادية الشام من بطش صديقه «قطز» بعد أن قام بقتل القائد العام للمماليك البحرية «فارس الدين أقطاى» بأمر من السلطانة «شَجَر الدُّرّ»، كما بَطَش «قطز» بـ «شجر الدر» أيضًا ووَطَّدَ الأمر لـ «على نور الدين بن المعز أيبك» الذى كان حَدَثًا غيرَ مؤهَّل للحكم، ثم بَقِىَ «قطز» يحكم بالفعل فى وجود «على نور الدين» حتى وصل المغول إلى العراق وقتلوا الخليفة العباسى «المستعصم» ومعه أكابر القوم.. وهنا فكر «المظفر قطز» فى الاستقلال بالحكم، فأطاح ـ دون إيذاء ـ بـ «على نور الدين»، ونادى له الفقهاء من على المنابر بأمر السلطنة بعد عَزْل «علىّ»، فأصبح هو «السلطان المُظَفَّر قطز»، واتخذ «سيفَ الدين أقطاى» وزيرًا له، والذى يحمل اسمًا شبيهًا باسم قائد المماليك البحرية الذى قتله من قبل. وأخذ «قطز» منذئذٍ فى الإعداد لحرب المغول (الأمر الذى يعكس أيضًا أنه لم يَقتل لكونه مجرمًا)، على حين شاركه هذه الفكرة فى نفس التوقيت ـ ولكن من مكان آخر ـ صديقُهُ القديمُ وزميلُهُ بالجيش ونِدُّهُ فى قوات المماليك البحرية «ركن الدين بيبرس البندقدارى» الذى كان

يتحصن ببيداء الشام مع بضع مئات من أتباعه، ومنهم «سيف الدين قلاوون»، الأمر الذى كان يسبب القلق لإمارات الصليبيين ـ وكذلك المغول فى أحيان كثيرة ـ حين يُغِير «بيبرس» بقواته على مخازنهم وعتادهم، مساعدًا بذلك إخوانه من المسلمين الواقعين تحت وطأة الاحتلال أو الحصار. وقد كان له دور فى تعزيز قوة احتمال وصمود إمارة "ميافارقين" التى حاصرها المغول حتى سقطت فى أيديهم بعد ثلاث سنوات من الحصار. وهنا طلب «بيبرس» من «قطز» أن يتَوَحَّدَا ثانيةً من أجل ملاقاة المغول، وهذا ما جرى بالفعل، إذ انتقل «بيبرس» مع قواته إلى مصر من جديد، وشارك «قطز» فى خطة "عين جالوت" بفلسطين حتى تم النصر الساحق للمسلمين، وأُسِرَ «كتبغا» قائد جيوش المغول وصَفِىُّ وتلميذ «هولاكو خان». وكانت جيوش المسلمين فى طريق العودة إلى القاهرة لإقامة أفراح النصر، وهنا بدأت قصة قتل المظفر «قطز» على يد «بيبرس»، وتلك هى الأسباب المتاحة من واقع الأحداث الثابتة:

1. بعد تحقيق النصر على المغول، كان «قطز» قد وعد «بيبرس» بولاية حلب حالَ الانتصار، ولكنه لم يفعل، الأمر الذى أثار حفيظة «بيبرس»، فأَسَرَّ النِّـيَّـةَ بقتل «قطز».

2. ثم أَضِفْ إلى هذا، ذلك الثأرَ القديمَ الذى يبدو أن «بيبرس» لم يَنْسَهُ، وهوقيام «قطز» بقتل قائد المماليك البحرية وقائده «سيف الدين أقطاى».

3. وإضافةً إلى السببين السابقين، نجد النِّـدِّيَّة الطبيعية التى كانت بين «قطز» و«بيبرس» أيامَ كان كلٌّ منهما قائدًا لفريق؛ فعلى المماليك المُعِزِّيِّين كان «قطز»، وعلى المماليك البحرية كان «بيبرس»، وكان من الصعب عليهما أن يأمن أحدُهما الآخَرَ نظرًا لما عاشاه من تجارب الفتن والقتل التى تورط فيها كلاهما مضطرًّا.

نتائج معركة عين جالوت

قبل المعركة، امتدت إمبراطورية المغول من الصين حتى حدود مصر.. وبعد المعركة، انكمشت إمبراطوريتهم حتى ضفة نهر الفرات. كما تلاشت الدولة الأيوبية من الشام، واتسعت الدولة المملوكية حتى تمكنت من أخذ الشكل الشرعى لها، فدخلت الشام والكَرْك وأماكن أخرى فى طاعتها، وأصبح نواب السلطنة يطيعون الأوامر التى تُـمْلَى عليهم من القاهرة عاصمة الدولة المملوكية. كما تلاشت أيضًا مساعى الصليبيين فى عقد حلف مع المغول، ولم يتمكنوا من السيطرة على بيت المقدس ـ وإنْ بقيت جيوبٌ لهم فى كلٍّ من عكا ومدن أخرى على ساحل الشام مثل بيروت وصُور ـ إلى أن تحرك السلطان «قلاوون» وطردهم من طرابلس عام 1290م، ثم جاء دور ابنه «الأشرف خليل» فى سنة 1291م ليطردهم من عكا نفسها وبقية مدن الشام الساحلية، فانتهى بذلك حلمهم التوسعى بعد الفشل الذريع لهم فى كل محاولاتهم التوسعية.

[8]

بلاد فارس بعد وفاة «هولاكو»


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

اجتمع أفراد العائلة الجنكيزية فى غرب آسيا عقب وفاة «هولاكو خان» سنة 1274م، وعقدوا قوريلتايًا مصغرًا أشبه بالذى يُعقد فى منغوليا والصين، وانتهى القوريلتاى بالاتفاق على اختيار «أباقا» ابن «هولاكو» "إيلخانًا" على إيران وتوابعها، وأدت «دوقوز خاتون» ـ المسيحية الديانة، وأم «أباقا» ـ دورًا فَعَّالًا فى اختيار «أباقا خان» لهذا المنصب، وساعدها فى ذلك «وارطان» مستشارها الأرمنى. وبعد أن أجمع المجتمعون فى القوريلتاى على اختيار «أباقا»، أرسل الخاقان الأعظم «قوبيلاى خان» برقية تأييد واعتراف بالخان الجديد، من عاصمة المغول الجديدة "خانبالق" (بكين). والإيلخانية: هى الدولة المغولية فى إيران، التى أرسى قواعدها «هولاكو خان»، وتضم البلاد الواقعة بين نهر جيحون إلى المحيط الهندى، ومن بلاد السند إلى نهر الفرات، مع جزء كبير من بلاد الأناضول وبلاد القفقاس.

لكن.. من هو «أباقا خان»؟

وُلد «أباقا خان» فى منغوليا سنة 1234م، وانتقل إلى إيران مع والده «هولاكو» سنة 1256م، وشارك فى معظم الحروب التى

وخصوصًا نحو توثيق العلاقات بين المغول والغرب المسيحى، وقد تعززت مع البابا «كليمنت الرابع»، وكان «أباقا خان» عازمًا على التعاون الكامل مع الغرب المسيحى من أجل تدشين حملة عسكرية مشتركة ـ غربية صليبية مغولية ـ لضرب المسلمين، ولكن الحملة باءت بالفشل بعد أن تسرب اليأس ودَبَّ الوهن فى عزيمة الصليبيين.

وفى سنة 1274م، بعث «أباقا خان» وفدًا للمشاركة فى المؤتمر الدينى المسيحى الذى عُقد فى ليون، وهو المؤتمر الذى دعا إليه البابا «جريجورى العاشر»، إذ بنى «أباقا خان» آمالًا على أن يخرج المؤتمر المسيحى باتفاق مع الدول المسيحية للعمل المشترك ضد المسلمين، لكن المؤتمر لم يحقق الهدف المأمول منه نظرًا لأن الأطراف الأوروبية كانت غير واثقة فى التحالف مع المغول، وذلك لِـمَـا اشتُهر عنهم من تطرف ووحشية وغدر. وقد أصاب الإحباطُ «أباقا خان» لفشل المؤتمر، وذلك لعدم جدية الجانب الأوروبى فى التحالف مع المغول. وفى الوقت ذاته، كانت المرارة تعتصر قلوب المسلمين فى إيران والعراق للعداء غير المبرَّر ضدهم. صحيح أن «أباقا خان» تمكَّن من كسب عدة جولات فى حروبه ضد أبناء عمومته من"القبيلة الذهبية" الطامعين فى اقتطاع أجزاء من المناطق الخاضعة له، لكنه فى ذات الوقت فشل فى المواجهات المتعددة مع المماليك، وكانت كفة المماليك هى الراجحة دائمًا فى كل المواجهات بين الطرفين.

خاضها والده. وكان حكام إيران من المغول يتبعون الخاقان فى بكين، وظلت التبعية مستمرة إلى أن مات «قوبيلاى خان» سنة 1294م. وقد اعتنق «أباقا» الديانة البوذية، وأسهم فى انتشار الديانة البوذية بين مغول إيران، وخلال عهده نشط الرهبان البوذيون فى الدعوة، وكانت الدولة الإيلخانية تُولِـى المسيحيين عنايةً خاصة؛ لأن «دوقوز خاتون» والدة «أباقا خان» كانت تعتنق الديانة المسيحية، ولذلك كانت تعطف على المسيحيين. وشهد عهد «أباقا خان» عداءً من جانب المغول ضد المسلمين، خاصة أتباع مذهب السُّنة الذين ينتمون إلى الدولة العباسية والمماليك، وعلى النقيض من ذلك كانت لديهم مساحة تسامح كبيرة مع المسلمين الشيعة. وما إن تولى «أباقا خان» الحكم وأصبح قادرًا على تصريف أمور البلاد، حتى اتبع ذات السياسة التى اتبعها والده «هولاكو» من قبل، وهى السياسة التى تقوم على العداء ضد المماليك، فسعى إلى استعادة السمعة العسكرية التى كان عليها المغول فى الماضى، واتخذ خطوات نحو تنظيم شؤون الدولة من الداخل، وأبرم اتفاقات مع المسيحيين والصليبيين، واتخذ من "تبريز" عاصمة لدولته. وكانت علاقته بالمسيحيين طيبة للغاية، حيث حرص على إرضاء والدته «دوقوز خاتون» رغم أنه كان يعتنق المذهب البوذى، حتى لقد تزوج من «مريم» ابنة إمبراطور القسطنطينية، فعُرفت بعد زواجها منه باسم «ديسبينا خاتون». وكانت المبادرة التى أقدم عليها «أباقا خان» تتسم بالإيجابية،

حروب المماليك والمغول فى بلاد الشام

دارت ثلاث مواجهات بين الجانبيْن المغولى والمملوكى، وكان النصر حليفًا دائمًا للمماليك، فتمكَّن المماليك من الثأر للمسلمين فى تركستان والسند وإيران وخوارزم والسند والعراق، وأوقفوا المغول عند حَدِّهم، وأثبت المماليك للعالم تفوقهم القتالى، مما أدخل الرعب فى قلوب الصليبيين ودفعهم إلى تحاشى المواجهات معهم خشيةَ أن تَلْحَقَ بهم الهزائم مثلما لحق بالمغول. وبعد مقتل السلطان «المظفَّر قطز» فى ذات العام الذى حقق فيه النصر على الصليبيين (1260م) وتولِّى «الظاهر بيبرس البندقدارى» المُلْك خَلَفًا له، وضع «الظاهر بيبرس» سياسته الحربية على أساس التصدى للمغول وعدم إتاحة الفرصة لهم للوقوف أمام المماليك فى أى معركة، فجهز جيوشه تجهيزًا مُحْكَمًا، علاوةً على أنه وضعها فى حالة استنفار دائم تحسُّبًا لما يمكن أن يُقْدِم عليه المغول من أعمال الغدر الذى هو سمة أصيلة فيهم. ورأى «بيبرس» ضرورة إنزال العقاب بالممالك المتحالفة ضد بلاده والمتعاونة مع المغول، وبالفعل بدأ فى معاقبة مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية طرابلس لتحالفهما مع المغول ضد المسلمين، فاستدعى فرقة عسكرية من أهم الفِرَق فى الجيش بقيادة الأمير «سيف الدين قلاوون»، وكلفها بالضرب بيد من حديد على الدول الحليفة للمغول. وبدأت الفرقة بالزحف، ونجحت فى الاستيلاء على العلقيات وحلباء، وعرقة، وهى المراكز الثلاثة التى كانت تمثل شبه مثلث يحمى طرابلس،

وجاء احتلال هذه المدن الثلاث مهدِّدًا طرابلس نفسها، وانتهز المماليك فرصة انشغال «أباقا خان» بالقتال ضد مغول القبجاق المسلمين، ومغول التركستان الجغتائيين من جهة أخرى، وانفردوا بملك أرمينيا الصغرى «هيثوم الأول» حليف المغول، والذى كان مستشارًا لـ «هولاكو»، وأدى دورًا كبيرًا فى تحريضه على قتال المسلمين، كما اتخذ سياسة عدائية ضد المماليك بمنعه تصديرالأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إلى مصر، وعند ذلك زحف الجيش المملوكى بقيادة «سيف الدين قلاوون» فى سنة 1266م يسانده جيش الملك «المنصور الأيوبى» صاحب حماة، وهاجم الجيشان أرمينيا الصغرى، وأطبقا على الجيش الأرمنى ككَفَّىِ الكماشة، وتمكَّنا من إنزال هزيمة فادحة بجيش الأرمن وحلفائه من الصليبيين والمغول قرب أنطاكية، وقُتل أثناء المعركة ابنٌ من أبناء «هيثوم»، ووقع آخر فى الأسْر، وفى نفس الوقت كان «هيثوم» متغيبًا فى تبريز يستغيث بالمغول ليقدموا له الدعم ضد أعدائه المسلمين. وبعد ذلك شن الأمير «قلاوون» هجومًا على المدن الأرمنية الرئيسية فى قلقيلية - وهى المَصِيصَة - وأذنة وطرطوس، وكذلك ميناء لياس. أما الملك «المنصور» الأيوبى فقد هاجم "سيس" عاصمة أرمينيا الصغرى، ودمرها وأحرقها، واستولى الجيش الإسلامى المشترك من المماليك والبيت الأيوبى على غنائم كثيرة من أبقار وأغنام، وأَسَرُوا نحو أربعين ألف أسير، وأخيرًا عاد «هيثوم» ومعه بعض المغول ولكن بعد فوات الأوان؛

فقد نزلت النازلة بقواته، وسعى «هيثوم» إلى استرداد ابنه الأسير من قبضة المماليك.

واستمرت مساعى «أباقا خان» الرامية لتكوين حلف مغولى صليبى مشترك للوقوف فى وجه المماليك، حيث توالت مراسلاته لبابا روما و«إدوارد» ملك إنجلترا فى سنة 1273م، وكان ملك إنجلترا من أشد أنصار التحالف مع المغول والتعاون معهم من أجل القضاء على قوة المماليك فى مصر والشام، وعندما عُقد مؤتمر ليون الكَنَسِى، حضره مبعوثان من قِبَل «أباقا خان» عَرَضَا خلاله خطة للتحالف مع الغرب ضد المسلمين، ولكن الفتور لازَمَ الغرب، إذ لم يكن لديهم أى حماس للقيام بحملة صليبية جديدة، ولكن اليأس لم يدخل نفس «أباقا خان»، فظل على أمل أن يتراجع الأوربيون عن موقفهم المعارض للتحالف مع المغول، وظل يرسل رسائله ويتعجل ردودهم. ولم يكن السلطان «الظاهر بيبرس» بعيدًا عما يُحاك ضد المسلمين من دسائس، بل كان على علم تام بكل ما يفكر فيه أعداؤه، فقرر مهاجمة أعدائه والإجهاز عليهم وتشتيت شملهم قبل أن يستعدوا ويأخذوا زمام المبادرة بالهجوم عليه، فجهز جيشًا وغَزَا به أرمينيا الصغرى للمرة الثانية فى سنة 1275م، ولم يتمكن «ليو الثالث» ملك أرمينيا الصغرى من التصدى للجيش المملوكى المهاجِم، إذ تمكَّن الجيش المملوكى من شَلِّ حركة الجيش الأرمنى وجعله بعيدًا عن مسرح الأحداث. ويَمَّمَ «الظاهر بيبرس» وجهَه شَطْرَ المغول حتى ينتقم منهم عقوبةً لهم على تجرؤهم بشن هجوم على بلاد الشام سنة 1271م، حتى

وصلوا إلى "مَعَرَّة النعمان" وعاثوا فيها فسادًا، لكنهم لم يستمروا هناك، بل انسحبوا بعد حملتهم خلف نهر الفرات عندما أيقنوا أن القوات المملوكية تتحرك لقتالهم، وقد أصبحت لديهم قناعة تامة بأنْ لا طاقة لهم بمواجهة جيوش المماليك، كما أغار «السلطان بيبرس» على بلاد سلاجقة الروم الخاضعة لحماية المغول، وتمكَّن جيش السلطان «بيبرس» من إنزال هزيمة نَكْرَاء بالجيش المغولى عند صحرء أبلستين بالأناضول فى أبريل سنة 1277م دون أن يتحرك الملك السلجوقى «كيخسرو» أو وزيره «معين الدين سليمان بروانة». وعندما احتل السلطان «بيبرس» مدينة قيسارية، أعلن نفسه وريثًا على العرش السلجوقى، وجلس على عرش «آل سلجوق» وخطب على منابرهم، كما أعلن الوزير «سليمان بروانة» خضوعه وولاءه للسلطان «الظاهر بيبرس» سلطان المماليك، فأبقاه «بيبرس» فى منصبه. وبعد أن أبعد «بيبرس» الخطر المغولى عن آسيا الوسطى، وما إن سمع «أباقا» ما وقع لجنوده فى بلاد الأناضول على أيدى المماليك حتى فكر فى غزو "قيسارية"، وعندما دخلها ارتكب مذابح ضد أهلها، وخاصة المسلمين، وقتل الوزير «سليمان بروانة» لتعاونه مع المماليك. وقد حاول «أباقا خان» أكثر من مرة أن يحارب المماليك، ولكنه كان يعلم جيدًا مدى قوتهم ولا يجد من يقف معه فى قتالهم، حتى من الأوروبيين. وانتهز فرصة وفاة الملك «الظاهر بيبرس» وبروز الفتنة بين أتباعه من المماليك من أجل الجلوس على عرش السلطنة، وأبرم اتفاقًا مع «ليو الثالث» حاكم أرمينيا لاستعادة بيت المقدس من المسلمين،

كما أرسل سفارة إلى ملوك أوروبا يدعوهم فيها للمشاركة فى القضاء على المماليك، حيث إن الفرصة مواتية الآن عقب وفاة السلطان «الظاهر بيبرس»، وهم الآن على خلاف حول من يتولى عرش السلطنة. وقد انشق عن صف المماليك الأمير «سنقر الأشقر» وانحاز للمغول، فراسَلَهم وحَرَّضَهم على غزو مصر، وأكد أنه سيقدم إليهم الدعم من أجل تحقيق ذلك. وبدأ «أباقا خان»، هو وحليفه «ليو الثالث» ملك أرمينيا الصغرى، بالعدوان على بلاد الشام وارتكاب الجرائم ضد الأهالى هناك، وهنا بدأ صوت العقل يعلو لدى أمراء المماليك، داعيا إياهم إلى نَبْذ الفُرْقَة حتى لا تضيع المكاسب التى حققوها. والتف أمراء المماليك حول السلطان الجديد «سيف الدين قلاوون» الذى بدأ يستعد للمعركة ضد المغول، وبالفعل التقى الجمعان عند حِمْص، ونجح الجيش المملوكى بقيادة «قلاوون» فى إلحاق الهزيمة بالجيش المغولى بقيادة «منكوتمر» شقيق «أباقا خان». وبهذا يكون المماليك قد هزموا المغول فى ثلاث معارك، هى: بيرة، وأبلستين، وحِمْص، علاوةً على موقعة عين جالوت. وتوفى «أباقا خان» فى أبريل سنة 1280م بسبب إسرافه فى شرب الخمر كعادة أركان الدولة المغولية، بعد أن حكم سبعة عشر عامًا قضاها في حروب مع جيرانه. وبعد وفاة «أباقا خان»، اجتمع القوريلتاى لانتخاب خليفة للخاقان، ووفقًا لقانون "الياسا" الجنكيزى، وقع الاختيار على «تكودار بن هولاكو». وبعد أن تولى عرش الإيلخانية، أشهر إسلامه على المذهب السُّنى، واتخذ لنفسه اسم «أحمد»، وبذل جهدًا كبيرًا لإقناع

المغول باعتناق الإسلام، فأسلم على يديه الكثير من المغول. واستقبل المسلمون إسلام «تكودار» بالبِشْر والفرح، وبدأ «تكودار» فى مراسلة رجال الدين الإسلامى، كما بعث برسالة إلى السلطان «قلاوون» أكد فيها استعداده للدفاع عن الإسلام والتصدى لأعدائه، ووجد منه المسلمون سِعَة صدر وحسن معاملة، وهى الصفة الغائبة عن الحكام المغول قبل القائد «أحمد تكودار بن هولاكو».

عداء شرس من كبار المغول لـ «أحمد تكودار»

بعد أن اعتنق «أحمد تكودار» الإسلام بدأ فى الاستعانة بالمسلمين، فأحاط نفسه بالمستشارين المخلصين، خاصة من المسلمين دون غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، الأمر الذى أوغر صدور كبار المغول الذين كانوا ينافسونه على عرش الإيلخانية، لكن «تكودار» نجح فى استمالة كثير من أعدائه بالعطف عليهم والإنفاق عليهم بسخاء، ولم يَسْتَثْنِ من ذلك غير «أرغون» ـ خصمه اللدود ـ ابن «أباقا خان»، إلا أنه عامله معاملة طيبة باعتبار أنه ابن أخيه، إلا أن «أرغون» كان يُضْمِر الحقد فى نفسه ضد عمه ويطمع فى الوصول إلى السلطة، فاتفق «أرغون» مع أحد أعمامه ـ ويدعى «قونغرقاى» ـ ليساعده فى القضاء على «تكودار»، كما تمكَّن «أرغون خان» من إقناع الوزير «مجد المُلْك اليزدى» للمشاركة فى المؤامرة ضد «تكودار»، ووعده بالوزارة فى حالة نجاح المؤامرة. غير أن «تكودار» قد اكتشف المؤامرة، وألقى

القبض على الوزير «مجد المُلْك اليزدى»، وبعد أن ثبتت إدانته، قُطع رأسه وأطرافه الأربعة وأرسلت إلى خمسة أقاليم للتشهير به؛ لعدم أمانته وخيانته لثقة الخاقان فيه. وانشغل «أحمد تكودار» بنشر الإسلام، وتغيير الصورة المغولية القبيحة لدى شعوب العالم، فكان إسلامه عاملًا مهمًّا من عوامل استقرار الأمور، وغلب الارتياح على الناس لوجود مثل هذا الحاكم المسلم على دفة الحكم، وذلك بعد أن تهذبت سلوكياته وجعله الإسلام رحيمًا يحسن إلى الضعفاء، لكن تصرفاته حيالَ اليهود والمسيحيين كانت على النقيض من تعامله مع المسلمين، فقد هدم كثيرًا من الكنائس والمعابد وحَوَّلَهَا إلى مساجد.

علاقة «أحمد تكودار» بالمماليك حكام مصر

بعد أن اعتنق السلطان «أحمد تكودار» الإسلام، عبَّر عن رغبته فى مد جسور التعاون وفتح أبواب العلاقات الطيبة مع جميع جيرانه من الحكام المسلمين، فأقدم على خطوة جريئة تكشف حسن نواياه، حيث بعث فى سنة 1282م رسالة إلى سلطان المماليك «المنصور قلاوون» مع رسولَيْن ـ هما «قطب الدين الشيرازى» والأتابك «بهلوان» ـ يزف إليه فيها نبأ إسلامه، وجاء فى الرسالة أنه أمر ببناء المساجد والمدارس، وأمر بتجهيز الحجاج، ودعا إلى وحدة الكلمة ونَبْذ الفُرْقَة وإصلاح شأن المسلمين، وجاء رد السلطان «المنصور قلاوون» طيبًا، إذ هنأ فيه «أحمد تكودار»

على دخوله الإسلام، ودعاه للتحالف معه ضد الصليبيين.. العدو المشترك للمغول والمسلمين.

إن الخطوة التى أقدم عليها السلطان «أحمد تكودار» بمراسلة سلطان المماليك لـحَقْن الدماء بين الجانبيْن وفتح صفحة جيدة من العلاقات الثنائية، جعلت بعض المغول يتهمونه بالخروج على قانون "الياسا" بحجة تعاونه مع المسلمين الذين أراقوا دماء الكثير من المغول أثناء حروب بلاد الشام وآسيا الصغرى.

عداء غالبية رؤوس البيت المغولى للسلطان «أحمد تكودار»

جلبت الجهود التى بذلها السلطان «أحمد تكودار»، والرامية إلى تبديل العمل فى الحكم وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية، علاوةً على مساعيه لفتح صفحة من التعاون البَنَّاء مع الدولة المملوكية.. جلبت المصائب إليه، حيث عارضه أقطاب العائلة أمثال «طغاجار» و«كيخاتو» و«قنغرقاى» و«بايدو»، وانحازوا إلى جانب منافسه العنيد «أرغون»، فبدأ «أرغون» يُعِد العُدَّة ويهيئ جيوشه للمعركة القادمة ضد عمه «تكودار»، وبالفعل عمل على استفزاز عمه وطالَبَه بتسليم بعض الولايات، إلا أن عمه أَبَى ذلك، فأعلن التمرد والخروج على عمه، ونشب قتال شديد بين العم وابن شقيقه المدعوم بتأييد من الخاقان الأعظم «قوبلاى»، لكن جيوش «تكودار» تمكنت من هزيمة جيش «أرغون» فى أوائل عام 1284م، وتم أسْر «أرغون»، ولكنْ قرر أمراء البيت الجنكيزى خلع «تكودار» وفَكّ أسْر «أرغون» وتنصيب «هولاكو» خانًا للمغول،

وتمت الخطة بعزل «تكودار» وتحرير «أرغون»، ثم دارت المعركة بين قوات «أحمد تكودار» والمتآمرين عليه، وانتهت بهزيمة «تكودار» بعد أن سقط كثيرٌ من الموالين له صَرْعَى. وبعد ذلك أعلن «أرغون» نفسه إيلخانًا للمغول، وجهز جيشًا لقتال عمه «أحمد تكودار» الذى فر إلى خُراسان للتجهيز لجولة جديدة من القتال ضد أعدائه. وعندما وجد بعض أتباع «تكودار» أن الكفة الراجحة هى كفة «أرغون»، قاموا بتسليم «أحمد تكودار» إلى معسكر خصمه «أرغون» الذى أمر بإعدام عمه. ويعد «أحمد تكودار» أول سلطان مغولى يدفع حياته ثمنًا لدخوله الإسلام والخروج على تعاليم الكتاب المقدس للمغول "الياسا"، وبموته فقد المسلمون اليد الحانية والقلب الرحيم الذى يدعمهم ضد غطرسة المغول.

«أرغون» يتولى عرش الإيلخانية

تولى «أرغون» عرش الإيلخانية من عام 1284إلى 1291م، وقد اغتصب الحكم من عمه «أحمد تكودار» بعد أن ثار عليه بحجة أنه اعتنق الإسلام وخرج على قانون "الياسا" الجنكيزية. وكان القوريلتاى قد عقد اجتماعًا قبل تنصيبه بيوم واحد لاختياره إيلخانًا جديدًا خَلَفًا لـ «تكودار»، وكان والده «أباقا خان» يعِدُّهُ قبل ذلك لخلافته على العرش، ولكن القَدَر لم يمهله لتنفيذ الوصية، غير أن «أرغون» قد استطاع أن يصل إلى العرش بعد أن تآمر على عمه «تكودار»، منتهزًا فرصة اعتناق «تكودار» الإسلام

ومحاولاته التعاون مع المماليك ـ الذين يمقتهم المغول لأنهم القوة الوحيدة التى تمكنت من كسر شوكتهم وأنزلت بهم الهزائم فى كل مواجهة تدور بين الجانبيْن ـ فألَّبَ عليه الناقمين من كبار المغول حتى انتهى الأمر بقتله.

وفى عهد «غازان» تحولت الأمور إلى صالح المسيحيين، حيث عمل «أرغون» على خدمتهم، واختار منهم بعض المستشارين فى بلاطه، ورغم أنه يعتنق البوذية، إلا أنه كان يعمل لصالح المسيحيين ويقف فى طريق المسلمين، حتى ذاقوا المهانة والذل فى عهده.

سياسة «غازان» الخارجية

كان حقد «أرغون» على المسلمين لا حد له، وذلك نتيجة للهزائم الكثيرة التى تعرَّض لها المغول فى عهد والده «أباقا خان»، فبدأ يوفد السفارات إلى ملوك غرب أوروبا يجهر فيها بعداء دولة المماليك، وأبرم اتفاقًا مع ملك أرمينيا الصغرى لاسترداد بيت المقدس، كما أرسل أربع سفارات إلى المقر البابوى يدعوهم إلى حرب المماليك ويطلب منهم غزو مصر. وبالرغم من تردد السفارات من قِبَل «أرغون خان» على المقر البابوى وبعض العواصم الأوروبية الغربية، فإنه لم يحدث أى نوع من التحالف بين الجانبيْن. وقد توفى «أرغون خان» سنة 1290م إثْـرَ تناوله عقارًا من عقاقير إطالة العمر.

«كيخاتو» خاقانًا للمغول

عندما توفى «أرغون»، تم استدعاء «كيخاتو» الذى كان حاكمًا على بلاد الروم. ووفقًا لقانون "الياسا"، يكون من حقه أن يعتلى العرش الإيلخانى لأنه أكبر الأمراء الأحياء سنًّا فى البيت الجنكيزى.

وقد واجه «كيخاتو» فى البداية ثورات واضطرابات شديدة وَضَحَ من خلالها عدم التماسك داخل البيت الجنكيزى، ولكن «كيخاتو» نجح برباطة جَأْشه فى القضاء على الفِتَن وإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعى، ولكنه ترك الأمور إلى نائبه فى الحكم الذى أساء التصرف، مما أوقع البلاد فى حالةٍ من الشقاء استدعت أن يتدخل مرة أخرى لإعادة النظام حتى تستقيم أمور الحكم، إلا أن «كيخاتو» كان رجلًا مسرفًا لا يقدّر قيمة المال، كما كان ميالًا لشرب الخمر، وعلاوةً على ذلك فقد أهمل شؤون البلاد، وإلى جانب ذلك كان مصابًا بالشذوذ الجنسى، الأمر الذى أثار حفيظة أمراء المغول عليه، حيث كانوا يرون أن من العيب أن يكون على رأس الإيلخانية رجل يتصف بهذه الصفات السيئة، فكان لا بد من وضع حد لهذه التصرفات. وتَزَعَّمَ «بايدو» ـ أحد الأمراء من بيت «هولاكو» ـ الثورة المضادة ضد «كيخاتو»، ووقع صِدام وتراشُق بالكلمات بين «كيخاتو» و«بايدو»، حيث هدد الأول الأخيرَ بالقتل، واتهمه بأنه وراء المعسكر المُعادِى له، فقبض على بعض الأمراء الموالين لـ «بايدو» وألقى بهم فى السجن، ومن ثم

استعد كلٌّ من «كيخاتو» و«بايدو» للقتال. وانحاز كلٌّ من أمراء المغول إلى الأمير الذى يواليه، ونشب قتال بين الطرفين انتهى بهزيمة «كيخاتو» وتصفية الأمراء الموالين له، ثم قُتل خنقًا بعد أن دانت الأمور لـ «بايدو خان بن طوخان بن هولاكو بن تولوى بن جنكيز خان» وتولَّى عرش الإيلخانية.

«بايدو خان»

اعتلى «بايدو» العرش فى سنة 1294م، حيث اجتمع القوريلتاى وانتخبه خاقانًا للبيت الإيلخانى، وذلك بعد مقتل «كيخاتو خان» بعشرة أيام، فبدأ يعيد الحقوق إلى أصحابها ويعمل على استقرار الأوضاع الداخلية ويتخلص من فريق العمل الذى كان يشارك فى إدارة الحكم خلال عهد سَلَفه «كيخاتو».

ولم يكد «بايدو» يستقر على عرشه فى هدوء، حتى ظهرت جبهة معارضة قوية يقودها الأمير «غازان بن أرغون»، وكان واليًا على خُراسان، حيث استنكر «غازان» ما وقع لعمه «كيخاتو» على يدىْ «بايدو»، وأيَّده فى ذلك الأمير «نوروز» أحد أمراء المغول المسلمين، إذ رأى أن الجالس على عرش الإيلخانية لا يَصْلُح لإدارة أمور البلاد، فهو شابٌّ أرعن تنقصه خبرة الإدارة. وقاد الأمير «نوروز» جيوش «غازان» فى القتال ضد «بايدو». وكان الدافع وراء الحرب ضد «بايدو» أنه كان وراء مقتل الخاقان «كيخاتو»، ووفقًا لأحكام "الياسا"، فلا بد من القِصَاص منه، وبالفعل دارت المعركة بين قوات «بايدو» وقوات «غازان»،

وانتهت بهزيمة «بايدو»، فأُلقى القبض عليه ليشرب من نفس الكأس التى شرب منها «كيخاتو»، وانتهى الأمر بقتله بناءً على أوامر من «غازان».

لم يستطع «بايدو» أن يستمتع بالجلوس على العرش الإيلخانى فترة طويلة، إذ إن مدة جلوسه لم تكن أكثر من سبعة أشهر فقط، وكان مقتله فى عام 1295م. وكان من أسباب انهيار دولة «بايدو»، أنه كان شابًّا صغير السن لا يدرك عواقب الأمور، كما أنه كان ألعوبة فى أيدى الأمراء المغول يحركونه كيف شاءوا، وعلاوةً على ذلك فقد تخلى عنه أغلب جنوده وانحازوا إلى عدوه وتركوه يَلْقَى مصيره وحده، حيث نجح الأمير «غازان» بذكاء شديد فى فتح قنوات اتصال مع القادة المغول ليقنعهم بالانفضاض من حول خصمه حتى يظل وحيدًا

السلطان «محمود غازان» يتولى عرش الدولة الإيلخانية

بعد أن تولى «غازان» عرش الإيلخانية سنة 1295م، أشهر اعتناقَه الدينَ الإسلاميَّ، وتبعه مئة ألف من المغول دخلوا الإسلام مثله، وتَلَقَّبَ باسم «مُعِزّ الدين محمود» مع احتفاظه باللقب المغولى "خان"، ونَصَّ أول قرار أصدره على اعتناق كل المغول من رعاياه الدين الإسلامى، حيث حطم بيوت العبادات التابعة للبوذيين والمسيحيين واليهود وحَوَّلَها إلى مساجد، وصار السلطان «محمود» ينفق بسَخَاء على العُبَّاد والنُّسَّاك، وبدأ فى إنشاء دُور العبادة وترميم مقابر الأئمة ورجال الدين، كما كان يقوم بنشر

الدعوة إلى دين اللـه بنفسه، وكان يجيد اللغة الفارسية، ويُلِمُّ باللغة العربية، وقطَع الصلة بينه وبين الخاقان المغولى فى "خانبالق" (بكين)، وأصبحت دولته مستقلة بعد أن كان حكام إيران من «هولاكو» إلى عصره نوابًا للخاقان فى "خانبالق"، كما ضرب العملة باسمه، وعامَلَ اليهود والمسيحيين الذين كانوا يتآمرون ضد المسلمين بالقسوة والغلظة. وأدى اعتناق الخان «محمود غازان» الإسلام عن إيمان وإخلاص، إلى قيامه بعدد من الإصلاحات تناولت شئون الإدارة والمال والاقتصاد والقضاء والعمران والتشييد فى بلاده، مما أفسح لاسمه مكانًا بارزًا بين أسماء أبطال التاريخ وكبار المصلحين وصُنَّاع الحضارة. واشتُهر «غازان» بحبه للثقافة والمعرفة، وشغفه بالتاريخ، وإتقانه الفارسية، وعنايته بالفنون والصناعات اليدوية، كما أنه قد اشتغل فى فترة من حياته بالكيمياء، وكان له معمل فى قصره يقضى فيه أوقاتًا طويلة بين كتبه وتجاربه.

ومن أعماله التى تدل على حبه للعمارة والبناء، قيامه بتجميل عاصمة مملكته "تبريز" بأبنية فخمة، تشمل مسجدًا عظيمًا، ومدرسةً كبيرةً، ودارًا للكتب، ودارًا لحفظ الدفاتر والقوانين التى اسْتَنَّها، ومَرْصَدًا فلكيًّا، وبستانًا، ومستشفًى، وخانقاه للمتصوفة.

وتوفى «غازان» وهو لا يزال فى ريعان الشباب سنة 1303م وعمره لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، ودُفن بعد وفاته فى تبريز، بعد أن ظل يحكم تسعة أعوام.

علاقة «غازان خان» بالمماليك

أمضى «غازان خان» معظم حياته الخارجية فى صراع ضد المماليك حكام مصر والشام، ودارت معارك عديدة بين المماليك والمغول، ولكن رَجَحَتْ كفة المماليك فى النهاية فى معركة "مرج الصفر"، حيث نجحت قوات «المنصور قلاوون» فى إنزال الهزيمة بالجيش المغولى، وكانت الصدمة قاسية على السلطان «غازان»، فمات متأثـرًا من جَرَّاء الهزيمة، علاوةً على التحديات الداخلية من قِـبَل بعض أفراد الأسرة الجنكيزية الذين كانوا يرغبون فى الوثوب على كرسى الحكم.

السلطان «محمد أولجايتو»

اعتلى «أولجايتو» العرش الإيلخانى خَلَفًا لأخيه السلطان «محمود غازان»، وذلك فى 21 من يوليو سنة 1304م، ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والعشرين بعد. وقد تَسَلَّم قيادة الدولة وهى فى أَوْج بهائها وعظمتها، فإصلاحات «غازان» أصابت كل أنحاء الدولة، ودفعت بها خطوات واسعة نحوالحضارة والمدنية والإنسانية.

وبعد ثلاثة أيام من الحكم، أصدر «أولجايتو» مرسومًا بإقامة شعائر الإسلام، واحترام القوانين الشرعية التى أصدرها أخوه «محمود غازان»، وإلزام المغول كافةً باعتناق الإسلام، وأبقى «رشيد الدين فضل اللـه الهمدانى» فى منصب الوزارة كما كان فى

عهد أخيه، وكان عالمًا كبيرًا ومؤرخًا عظيمًا، وهو صاحب الكتاب المعروف 'جامع التواريخ' الذى يُعد أهم كتاب تناول تاريخ المغول فى هذه الفترة.

سياسة «أولجايتو»

سار «أولجايتو» على نهج أخيه «غازان خان» فى حسن معاملة رعاياه، وإقامة العدل بينهم، ونصرة المظلومين منهم، ومنع تعدِّى المغول على الناس.. واستمر فى تشييد المؤسسات الاجتماعية التى تنهض بالناس، من بناء المدارس والمستشفيات والحمامات والملاجئ، كما أعاد بناء مرصد "مراغة" الذى بناه «هولاكو». وأما عن سياسته الخارجية، فقد نجح فى فتح إقليم "جيلان" وبسْط سيطرته عليه، ولم يكن المغول قد تمكنوا من السيطرة عليه من قبل، وحافظ على علاقات ودية مع دول أوروبا المسيحية.

«أولجايتو» ودولة المماليك

تأثرت العلاقات بين الدولتيْن المغولية والمملوكية نتيجةً لاعتناق الإيلخان المذهب الشيعى، فهو أول حاكم مغولى يعتنق المذهب الشيعى، بل وأمر الجندَ باعتناقه، وألزم به أهل مملكته، وذلك فى سنة 1301م، بعد أن كان سُنِّيًّا يلتزم المذهب الحنفى ثم الشافعى.

وقد حاول «أولجايتو» أن يُوَثِّق عرى الصداقة بين دولته ودولة المماليك، فتَوَدَّدَ إلى السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» سلطان

دولة المماليك، ثم لم تلبث أن ساءت العلاقة بين الدولتيْن، فقام «أولجايتو» بتجهيز حملة على بلاد الشام فى 26 من يوليو عام 1312م مستعينًا باثنيْن من كبار قادة السلطان «الناصر» كانا قد فَـرَّا إليه وزَيَّنَا له الاستيلاء على بلاد الشام التى كانت خاضعة لسلطة دولة المماليك، غير أن تلك الحملة التى خرج على رأسها السلطـان «أولجايـتو» بنفسـه، اصطدمـت بأول قلعـة مملوكيـة عـلى الحدود الشامية، وهـى قلعـة "الرحبـة" الواقعـة عـلى نهر الفرات، وفشل فى اقتحامها وإخضاعها، فقرر العودة إلى بلاده سنة 1304م، ولم يحاول بعد ذلك أن يغزو الشام، بل وأقلع تمامًا عن هذه الفكرة.

بناء مدينة "سلطانية"

كان من أمانى السلطان «غازان» أن يبنى مدينة بموضع "بستان سلطانية" الواقعة إلـى الشـمال الشرقـى مـن العـراق فـى البـلاد الواقعة بين نهرى زبخان وأبهر، وشرع فى تنفيذ ذلك فعلًا، لولا أنْ وافته المَنِـيَّة قبل أن يحقق هدفه، فحال ذلك بينه وبين إتمام بناء المدينة.

وكان المغول يطلقون على موضع "سلطانية" الحالى اسم "قنغور ألانك"، وكانت مرعى لأغنامهم ينزلون به فى طريقهم من العراق إلى أذربيجان، فجاء السلطان «محمود غازان» واتخذ من هذا المكان أساسًا لمدينته، ثم بدأ «أولجايتو» فى استكمال ما بدأه أخوه، فأتم بناء المدينة فى عشر سنوات، وأطلق عليها اسم

"سلطانية"، واتخذها عاصمةً لدولته، وقد استغرق بناؤها الفترةَ ما بين سنتىْ 1304 و1314م، وتحوَّل الموضع ـ الذى كان مرعًى خاليًا من العمران ـ إلى مدينة عظيمة تضم العمائر الفخمة، والمدارس الكبيرة، والمساجد الرائعة، والحمامات والأسواق، كما امتلأت بالناس من كل الطبقات. وأنشأ «أولجايتو» حولها حصنًا مربعَ الشكل، بلغ طوله نحو ثلاثين ألف قدم، ويسمح عرض جداره بأن يتحرك عليه أربعة فرسان جنبًا إلى جنب، وجعل فى منتصف السور قلعة كبيرة تشبه المدينة فى ضخامتها، وبنى فيها ضريحًا لنفسه بالغ الارتفاع، تعلوه ثمانى مآذن، ليُدفن فيه.. ويعد هذا الضريح من أهم نماذج العمارة فى العصر المغولى.

نهاية السلطان «أولجايتو»

يعد السلطان «أولجايتو» من ملوك المغول الإيلخانيين الذين نهضوا بإيران، وكان يتميز بحُسْن الإدارة والقيادة.. وبعد وفاته تولى السلطان «أبوسعيد بهادر خان» عرش الإيلخانية فيما بين سنتى 1316و1328م .

تولى السلطان «أبو سعيد بن محمد أولجايتو» حكم الدولة الإيلخانية خَلَفًا لوالده طبقًا لوصية أبيه قبيل وفاته، وكان يبلغ من العمر حينَ ذاكَ نحو 12 عامًا، ويعد ذلك مخالفًا لأحكام "الياسا" الجنكيزية التى كان المغول يحرصون على تطبيقها بمنتهى الدقة، وهذا يعنى انصراف المغول عن العادات والتقاليد المغولية، والمُضِىّ على نهج الإسلام والقوانين الإيرانية.

ولد «أبو سعيد» فى اليوم الخامس من شهر ذى القعدة سنة 704 هـ، وقد خَصَّصَ والدُهُ الأميرَ «سونج» ليتولى العناية بتربيته وتنشئته نشأة إسلامية خالصة. ولَـمَّـا بلغ السابعة من عمره، عيَّنه والده واليًا على خُراسان. وعندما توفى والده، اصطحبه الأمير «سونج» والأمير «جوبان» إلى العاصمة "سلطانية"، ونُودِىَ به إيلخانًا بعد تشييع جنازة والده «محمد أولجايتو». وقد تولى الأميران «سونج» و«جوبان» إدارة شؤون الحكم نظرًا لصِغَر سن السلطان «أبى سعيد»، ولكن بعد أن نضج السلطان الصغير ووصل إلى القدرة على توجيه دَفَّة الحكم، تميز بالحِنْكَة والمهارة، وحسن إدارة العلاقات الخارجية، والرحمة بالشعوب المحكومة.. كما أصلح العلاقات مع دولة المماليك.. وهى العلاقات التى شهدت توترًا شديدًا منذ حُكْم السلطان «محمود غازان».

[9]
المغول فى الهند


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

قيام الدولة المغولية فى الهند

نشأت فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى، فى شمال شبه القارة الهندية، دولة مغولية فتية، ومؤسس هذه الدولة هو «ظهير الدين محمد بابر»، وقد امتد عمر هذه الدولة ثلاثة قرون، حتى تمكنت بريطانيا من احتلال الهند كلها بأسلوب المؤامرات والخداع، وبالتالى قَوَّضَتْ هذه الدولة. وكانت الدولة المغولية بالهند حريصة على مصالح الناس، حيث عاش الناس خلال فترات حكمها أزهى عصور التسامح والعدل والسلام والأمن.

وإذا تحدثنا عن «ظهير الدين بابر» نقول: إن نَسَبه يمتد إلى «تيمور لنك» التترى الذى أسس إمبراطورية مترامية الأطراف، امتدت من دلهى حتى دمشق، ومن بحيرة آرال إلى الخليج العربى، ولكن لم تلبث هذه الإمبراطورية أن توزعت بعد وفاته بين أولاده، إلا أن حفيده «أبا سعيد ميرزا» تمكَّن من إنشاء دولة امتدت من السند إلى العراق، وخَلَفَهُ فيها أبناؤه العشرة، واختص «عمر شيخ ميرزا» ـ والد «ظهير الدين بابر» ـ بإقليم "فَرْغَانَة" بأقصى الشمال الشرقى من بلاد ما وراء النهر.

المولد والنشأة

كانت إمارة "فرغانة" مسقط رأس «ظهير الدين» الذى وُلد سنة 1418م، وقد كان يحكمها أبوه «عمر شيخ ميرزا»، وكان حاكمًا طموحًا ذا رغبة فى التوسع؛ ولذلك دخل فى صراعات مع جيرانه من المغول ـ وكانوا أصهاره ـ وكذلك مع إخوته من أجْل توسيع سلطانه ومد نفوذه، لكنَّ يدَ القَدَر كانت أسبق من أحلامه التوسعية، إذ سقط من فوق حصن له قتيلًا، فخَلَفه ابنه «ظهير الدين» على مُلْكه، وكان إذ ذاك صبيًّا صغيرًا فى الثانية عشرة من عمره.

تولى «ظهير الدين» حكم "فَرْغَانَة" سنة 1429م، وورث الصراعات والخلافات مع جيرانه عن أبيه، ولم يكن لمثل هذا الصبى أن يتحمل تبعات إمارة يتربص بها جيرانها، لكنَّ مَن حوله أداروا له دفة الأمور، وساعدوه فى حكم البلاد، فلم تَكَدْ تمضى سنوات قلائل حتى انقض على "سمرقند" فاستخلصها لنفسه من أيدى أبناء عمومته، واتخذها عاصمة لدولته كما كانت من قبل حاضرة لجده «تيمور لنك».

«بابر» يفقد سلطانه

جلس «بابر» على عرش «تيمور لنك» ثلاثة أشهر وعشرًا، لكنه لم يَهْنَأ به طويلًا؛ إذ انقض عليه جيرانه من الأمراء الأوزبك والشيبانيين، ففَقَد سمرقند وجميعَ أملاكه ببلاد ما وراء النهر،

وأصبح شريدًا يضرب فى الأرض ويبحث عن مأوى. لكنه وإنْ خسر مُلْكَه وتخلى عنه رجاله، فإنه لم يتسرب اليأس إلى نفسه، ولم يفقد الأمل، فظل عامًا وبعض عام فى الصحارى والجبال حتى واتته الفرصة، فانتهزها بعد أن التقى جموعًا من عشائر المغول والأتراك الفارِّين من وجه الأوزبك عند الجنوب الشرقى ببلاد ما وراء النهر، فقادها واتجه بها إلى أرض "كابُل" و"غَزْنَة"، وكان أحد أعمامه قد تُوفى حديثًا هناك، فأقام بها، وتولى عرشَها، وظل نحو عشرين عامًا قبل أن يُقْدِم على فتح الهند وإقامة دولة مغولية هناك.

التحالف مع الصفويين

انتعشت آمال «ظهير الدين» عندما تمكَّن «إسماعيل الصفوى» - شاه الفُرْس - من القضاء على شوكة الأوزبك وزعيمهم «شيبانى خان»، واقتطع جزءًا كبيرًا من أملاكه وأراضيه، وتطلع إلى استرداد بلاد ما وراء النهر، فأمده حليفه بفِرَق من جنده ليستعين بهم فى تحقيق آماله وطموحاته، وقد رحّب أهالى بخارَى وسمرقند بأميرهم القديم واستقبلوه استقبالًا حسنًا، ولكن ما لبث أن تحوَّل الترحيب إلى مقاومة لإصرار جنود الشاه على إرغام أهالى البلاد على اعتناق المذهب الشيعى، فارتكبوا فى سبيل تحقيق ذلك مذابح رهيبة، مما جعل الناس يأتلفون مع الأوزبك لطرد هؤلاء الغزاة، ومعهم «بابر» نفسه الذى حاول أن يمنع قادة الفُرْس من ارتكاب جرائمهم المهينة، لكن صوت نُصْحه ضاع أدْراج الرياح.

ولو أن العالم الإسلامى كانت به من القوة ما تمنع اعتداء الغاشم، وتردّ الباغى عن غَيِّه، لأمكنه ذلك من نصرة المسلمين فى الأندلس والوقوف أمام إسبانيا التى انفردت بالمسلمين تفعل بهم ما تشاء، لكن المسلمين كانوا فى شغل بالحروب فى غير ميدان، والصراع على آمال حقيرة!

ولو ترابطت الدول الإسلامية الكبرى - العثمانية والصفوية والمغولية - لما ظهرت روسيا، أو لَتَأَخَّرَ ظهورُها على مسرح التاريخ، وهى التى كانت فى مهدها تدفع الجزية للمسلمين، لكنها استغلت الخلافات المذهبية والصراع بين الدول الإسلامية لتبنى مجدها، وتصبح مصدرَ خطر دائم عانت منه الدولة العثمانية، حيث استولت على أراضٍ إسلامية، وتشرَّدَ من سكانها ملايين عديدة.

التوجه إلى الهند

ولَّى «ظهير الدين بابر» وجهَه شطرَ الهند بعد أن استنجد به فريق من أمرائها ليخلصهم من استبداد «إبراهيم اللودهى» حاكم "دلهى"، فانتهز الفرصة لتحقيق آماله العريضة فى إقامة دولة كبيرة له بالهند، بعد أن ثبَّت الأوزبك أقدامهم ببلاد ما وراء النهر من جديد، واستولى الصفويون على خُراسان كلها، فلم تَعُدْ له فرصة سوى أن يقيم دولة فى الهند.

خرج «بابر» إلى الهند فى غزوات متتالية بدأت سنة 1519م، حتى تمت له السيطرة على السند والبنجاب، ثم كانت معركته الفاصلة "باى بت" فى 20 من إبريل سنة 1526م مع «إبراهيم

اللودهى» على بعد عشرة أميال شمالى "دلهى"، وقد حقق نصرًا هائلًا على اللودهيين على الرغم من قلة عدد جنوده الذين لم يتجاوز عددهم اثنى عشر ألفًا فى مقابل مائة ألف، بعد أن باغت خصمَه وهوف طريقه للقتال، وأخذت بنادقُهُ ومدفعيتُهُ تُصْمِى قلبَ الجيش اللودهى نارًا حامية، ولم تكن للهند معرفة بها من قبل، فتمزق جيشِ اللودهيين، وقُتل السلطان «إبراهيم» فى ساحة القتال، ودخل «بابر» مدينة "دلهى" واستقر على عرش اللودهيين بقلعة "أكرا".

وبعد النصر، بدأ الفاتح العظيم فى توزيع ما وقعت عليه يداه من كنوز الهند على رجاله، وبلغ من كثرتها أنه بعث بنصيبٍ منها إلى وُلَاتِهِ وجنوده فيما وراء حدود الهند، وأغدق على العلماء والفقراء فى سائر المزارات الإسلامية والأراضى المقدسة، وخَصَّ كلَّ ساكنى "كابُل" بنصيب من غنائمه. ويذكر أن مما غنمه الفاتح جوهرةَ "كوهينور".. أكبر ماسة عرفتها الدنيا.. وهى التى نهبها البريطانيون فى القرن التاسع عشر، وزينوا بها تاج ملكتهم «ڤكتوريا».

التوغل فى شبه القارة الهندية

فى الوقت الذى انشغل فيه «ظهير الدين بابر» بتنظيم أموره، بدأ الأمراء الأفغان يضعون أيديهم فى أيدى الأمراء الهندوس بالراجيوتانا، مكوِّنين جبهةً واحدةً لطرد «بابر» وقواته، واقتضى الأمر تحركًا سريعًا لضرب هذا التحالف قبل استفحاله، وما كاد

يستعد لذلك حتى فوجئ بشيوع رُوح التذمُّر تَسْرِى بين جنوده، وكذلك بتسرُّب الملل إلى نفوسهم، فبدءوا يطالبون بالعودة إلى بلادهم، وشعر «بابر» أن آماله ستتبدد لو رَضَخَ لـهَوَى جنوده، وأن طموحه العظيم سيصبح سرابًا لو وافقهم على هواهم؛ فبذل معهم محاولات جادة لإثنائهم عن عزمهم وبث روح الجهاد والآمال العظيمة فيهم، حتى أفلح فى جعلهم يخضعون له .

وما كاد يتم له ذلك، حتى أرسل ابنه «همايون» إلى المناطق الشرقية فى أربعين ألفًا من الـجُنْد، فاستولوا على "قنوج"، واتجهوا إلى "أكرا" فاستولوا عليها، وتوغلوا حتى أشرفوا على حدود البنغال، وبينما كانت قوات «همايون» تحقق تلك الانتصارات، كان خطر الأمراء الهنادكة لا يزال قائمًا، فأرسل «بابر» إلى ابنه يستدعيه على عَجَل لمواجهة التحالف الذى قام بين الهنادكة وأمراء الأفغان تحت زعامة «راناسنكا» سيد الراجبوتانا وأكبر أمراء الهنادكة، وتجمَّع فى هذا التحالف نحو مئة وعشرين ألفًا من الجند ومئات الأفيال.

والتقى الفريقان فى معركة هائلة فى "خانوه"، وثَبَتَ المسلمون فى الميدان، وأَبْلَوْا بلاءً حسنًا، وأخلصوا نياتهم، وبالغوا فى تضرّعهم إلى اللـه طلبًا للنصر، واستعملوا البنادق والمدفعية، حتى جاء نصر اللـه والفتح، فانفرط عقد الهندوس ووَلَّوُا الأدبار. وبهذا النصر العظيم قُضى على الخطر الهندوسى الذى ظل يهدد كيان الدولة

الإسلامية بالهند منذ قيامها على يد السلطان «محمود الغزنوى» فى نهاية القرن الرابع الهجرى.

ولم يكتفِ «بابر» بهذا النصر، بل خرج بقواته لمطاردة ثورات الأفغان حتى حدود البنغال، وبذلك خضعت له الهِنْدُسْتَان، وأقام إمبراطورية المغول فى الهند.

شخصية «بابر»

يعد «ظهير الدين بابر» من كبار القادة والفاتحين فى تاريخ الإسلام، فقد نجح فى إقامة دولة كبيرة بهِمَّته العالية ورُوحه الطامحة وإصراره الدائب قبل أن يُقِيمَها بسيفه وغزواته، وتعرَّض لِمِحَن كثيرة وهو لا يزال صبيًّا غَضَّ الإهَاب، فقابلَها بثبات الأبطال، وبقلب لم يعرف اليأس إليه طريقًا.

يُذْكَر له أنه كان يقود جندًا من مختلف الأجناس، من مغول وتُرْك وأفغان، لكنه نجح فى قيادتهم، وقضى بعزيمته وحكمته على بوادر أىّ تذمُّر فى مهده؛ ولذا فقد نجح فيما عجز عنه غيره فى مواصلة الفتح فى بلاد الهند .

وعُرف هذا السلطان بسماحته وبُغْضِه للتعصّب الدينى، ونَهَجَ خلفاؤه فى الهند هذه السياسة، فمارَسَ الهندوس طقوسهم الدينية فى حرية تامة دون تضييق إبان حكم الدولة المغولية فى الغالب، وكان سَمْحًا مع رجاله الذين تخلوا عنه، فعَفَا عنهم حين وفدوا عليه فى الهند .

اشتُهر ببنائه مقبرة "تاج محل" لزوجته «ممتاز محل»، وهى تُعد من روائع الفن المعمارى، ومن عجائب الدنيا المعروفة.. والسلطان «أورنك أزيب» الذى تمسَّك بالسُّنة وأشرف على الموسوعة المعروفة بالفتاوى الهندية أو "العالمكيرية"، نسبةً إلى «عالمكير»، وهو اسم اشتُهر به فى الهند. ثم أتى حينٌ من الدهر ضعفت فيه الدولة بعد قوة، وانصرف رجالها إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة وإيثار أنفسهم بالكنوز التى حصلوا عليها فى فتوحاتهم، فانتهز «نادر شاه» الفارسى فرصة تَـرَدِّى الدولة المغولية فى الهند وزحف عليها سنة 1740م، وأحدث بـ "دلهى" عاصمة الدولة الدمار والخراب، وأعمل السيف فى أهلها، ورجع إلى بلاده محمَّلًا بغنائم هائلة. وساعدت هذه الأوضاع فى زحف الإنجليز للسيطرة على الهند بسياستهم الماكرة وأسلوبهم المخادع تحت ستار 'شركة الهند الشرقية'، وانتهى الحال بأن دخل الإنجليز "دلهى" فى مستهل القرن التاسع عشر الميلادى، وبسطوا سلطانهم فى البنجاب، وتَطَلَّعُوا إلى احتلال بلاد الأفغان، لكن فاجأتهم شجاعة أهلها وبسالتهم، فرجعوا عن هذا المخطط يائسين.

وقد فقد المسلمون فى الفترة التى استولى فيها الإنجليز على الهند ما كانوا يتمتعون به من سلطان ونفوذ، وإمساك بمقاليد الأمور، واحتكام إلى الشرع الحنيف فى كل الأمور. ولم يكن لسلاطين "دلهى" من الحكم شىء، إذ تمادَى الإنجليز فى طغيانهم، وعَمَدُوا إلى تغيير الطابع الإسلامى لبعض المناطق الهندية ذات الأهمية

وعلى الرغم من قِصَر المدة التى مكثها فى الهند، فقد اجتهد فى إصلاح نُظُم الإدارة وبناء دولته، فشَقَّ الطرقَ، وحَفَرَ الترعَ والأنهار، وأقام عددًا من البساتين، وجَلَبَ لها صنوفًا من الثمار والنباتات لم تكن الهند تعرفها من قبل .

ولم يكن «بابر» قائدًا عظيمًا وفاتحًا كبيرًا فقط، بل كان أديبًا موهوبًا كذلك، إذ كتب سيرة ذاتية لنفسه باللغة التركية باسم "بابر نامة" ضمَّنها ترجمة لحياته وعصره، وذكر فيها ما قابله من أحداث وحروب، واتسمت تلك السيرة بالصدق مع النفس، فلم ينكر فضيلةً لعدو أو يُخْفِى رذيلةً لصديق. وقد تُرجمت هذه السيرة إلى الفارسية، وكذلك إلى عدة لغات أوروبية.

وفاته

بعد أن انتصر «بابر» على الأفغان لم يمتد به الأجَل، فتُوفى فى 22 من فبراير عام 1530م وهو فى الخمسين من عمره، ولم يكن قد مضى عليه فى الهند أكثر من ست سنوات.

كانت إمبراطورية المغول فى الهند آخر دولة حكمت الهند، ودام سلطانُها نحوثلاثة قرون منذ أن أسسها «ظهير الدين بابر" فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى. وتوالَى على حُكْمها عدد من السلاطين العِظَام، يأتى فى مقدمتهم السلطان «جلال الدين أكبر» الذى نهض بالدولة نهضة عظيمة، ونجح فى تنظيم حكومة أجمع المؤرخون على دِقَّتها وقوتها.. والسلطان «شاه جهان» الذى

الكبيرة، وإلى محاربة التعليم الإسلامى، والاستيلاء على الأوقاف الإسلامية، وأَذْكَوْا نار العداوة بين المسلمين والطوائف الأخرى.

ولاية السلطان «بهادر شاه»

فى ظل هذه الأجواء المتردية، تولى «بهادر شاه الثانى» الحكم فى الهند سنة 1838م، خَلَفًا لأبيه السلطان «محمد أكبر شاه الثانى»، وكان الإنجليز فى عهده قد أحكموا سيطرتهم على البلاد، وفرضوا نفوذهم على سلاطين الهند الذين كانوا يتقاضون رواتب مالية منهم، وغَدَوْا كأنهم موظفون لديهم، وبلغ من تعنتهم ومدى نفوذهم أنهم كانوا يتحكمون فيمن يدخل "دلهى" ومن يخرج منها! ولم يكن عهد «بهادر شاه الثانى» أحسن حالًا من عهد أبيه، فسياسة الإنجليز لا تزال قائمة على جعل أعمال الحكومة فى أيديهم، فى حين يبقى الحكم باسم السلطان المسلم، ويُذْكَر اسمه فى المساجد، وتُضرب النقود باسمه، وكان هذا منهم عملًا خبيثًا يفرّقون به بين الـحُكْم وبين المَلِك الذى عُدَّ رمزًا للحكم الإسلامى، فكانوا يحكمون هُمْ باسمه باعتبارهم نائبين عنه. وقد فَطَنَ العلماء المسلمون فى الهند لهذا العمل المخادع، فعارضوا هذه السياسة وثاروا فى وجهها، وقالوا: «لا يُتَصَوَّر أن يكون هناك مَلِك إسلامى دون حُكْم إلا إذا تصورنا الشمسَ دون ضوء!»، وأعلنوا ـ حين صار هذا الوضع سائدًا فى الهند ـ أنها أصبحت دارَ حرب، وعلى المسلمين أن يَهُبُّوا للجهاد ضد الإنجليز حتى يردوا الـحُكْم إلى أهله. وحتى هذا الوضع الشائن للحكام المسلمين لم

يستمر طويلًا، فقد أعلن الإنجليز أنهم فى طريقهم للقضاء عليه، فوَجَّهُوا إنذارًا إلى «بهادر شاه الثانى» ـ الذى كان أسيرَ القلعة الحمراء التى يسكنها فى "دلهى" بلا نفوذ أو سلطان ـ مخبرين إياه بأنه سيكون آخِرَ مَلِك يسكن القلعة، وأنها ستصبح ثكنة عسكرية، وأن المخصَّصات التى يأخذها منهم ستنقطع بعد وفاته.. وكان هذا يعنى القضاء على دولة المغول فى الهند، كما كان لهذا الخبر وَقْع الصاعقة على الشعب المسلم فى الهند.

اشتعال الثورة فى الهند

كان هناك سُخْط عام فى الهند على وجود الإنجليز الذين ينهبون خيراتها ويمارسون سياسة متعسفة وظالمة ضد المسلمين، فكانت النفوس تموج بالغضب وتمور بالثورة والغليان، وتنتظر الفرصة المناسبة والقائد الذى يمكن أن تلتف حوله وتجاهد تحت رايته، وكان شمال الهند أكثر المناطق استعدادًا للثورة، فهناك يكثر المسلمون، وتطغى سياسة الإنجليز الباطشة والمستهزئة بعقائد المسلمين وعباداتهم.

مقدمات الثورة

هناك إجماع على أن الجنود المسلمين والهندوس فى الجيش البريطانى المعسكر فى ثكناته فى "ميرت" ـ التى تقع شمال "دلهى" بنحو 90 كيلومترًا ـ هم الذين بدءوا الثورة وأَزْكَوْا نارها، وكان تَعَنُّت الضباط الإنجليز واستهتارهم بعقائد الجنود وراء ثورتهم

وغَضْبَتهم، بعد أن أرغموهم على قطع الدهن المتجمد الذى يُستخدم فى تشحيم البنادق بأسنانهم، وكان هذا الشحم مركَّبًا من دهون الخنازير والبقر، فتَذَمَّر الجنود من ذلك باعتبار أن البقر محرَّمٌ أَكْلُهُ على الهندوس كتحريم لحم الخنزير عند المسلمين، غير أن هذا التذمّر زاد الضباط الإنجليز تماديًا وغرورًا، فعاقبوا المتذمِّرين، ولم يلبث أن هَبَّ زملاؤهم بثورة عارمة فى المعسكر غضبًا لعزتهم وكرامتهم، وكان ذلك فى 11 من مايو عام 1858م، حيث انقضّوا على ضباطهم الإنجليز وقتلوهم، وانطلقوا إلى "دلهى" معلنين الثورة، وسرعان ما انتشر لهيبها حتى عَمَّ "دلهى" وما حولها.

«بهادرشاه» قائداً للثورة

دعا «بهادر شاه» علماءَ المسلمين إلى اجتماعٍ فى المسجد الجامع بـ "دلهى"، فأشهروا فتوى بإعلان الجهاد وقَّعها كثير من العلماء البارزين، وكان لها أثر عظيم فى تأييد الثورة واجتماع الناس للبذل والجهاد. واتحد الثائرون من المسلمين والهندوس، واختاروا «بهادر شاه» قائدًا عامًّا للثورة، وفى ذلك إشارة إلى رِضَى الجميع عن الحكم الوطنى المغولى.

وقد قامت الثورة فى "دلهى" دون تخطيط دقيق مُسْبَق، كما افتقدت القيادة الواعية التى تستطيع أن تتحكم فى حركة الثورة، ولم يكن «بهادر شاه» يصلح لهذا الدور لكِبَر سِنِّه، فاستطاع الإنجليز أن يعيدوا تنظيم أنفسهم، وجمعوا قوات هندية من الأمراء الموالين لهم فى بعض مناطق الهند، وانضم إليهم "السِّيخ"

الذين كانوا يُكِنُّون عداءً شديدًا للمسلمين، الأمر الذى ساعدهم على مقاومة الثورة والقضاء عليها فى "دلهى" والمناطق الأخرى التى اشتعلت بها فى 19 من سبتمبر عام 1857م.

وحشية المحتل الإنجليزى

بعد فشل الثورة، قام الإنجليز بالقبض على «بهادر شاه» وأخذوه هو وأهل بيته أسرى، وساقوهم مقيَّدين فى ذِلَّة وهوان. وفى الطريق، أطلق أحد الضباط الرصاص من بندقيته على أبناء الملك وأحفاده، فقُتل ثلاثة منهم، وقُطعت رؤوسهم. ولم يكتفِ الإنجليز بسلوكهم المُنْحَطّ بالتمثيل بالجثث، بل فاجئوا الملك وهو فى محبسه بما لا يخطر على بال أحد خِسَّةً وخِزْيًا، فعندما قدَّموا الطعامَ للملك فى سجنه، وضعوا رؤوس بَنِـيهِ الثلاثة فى إناءٍ مغطًّى وجعلوه على المائدة، فلما أقبل على تناول الطعام وكشَف الغطاء، وجد رؤوس أبنائه الثلاثة وقد غُطيت وجوههم بالدم. لكن طبيعة الأَنَفَة والكبرياء سَمَتْ فوق الحدث وفوق الحزن والـجَزَع، فقال فى ثبات وهو ينظر إلى مَن حوله: «إن أولاد التيموريين البواسل يأتون هكذا إلى آبائهم مُـحْمَرَّةً وجوهُهم»، كنايةً عن الظَّفْر والفوز فى اللغة الأوردية.

محاكمة «بهادر شاه»

بعد القبض على «بهادر شاه»، بدأ الإنجليز فى محاكمته محاكمةً صُورِيَّةً فى "دلهى" فى 26 من يناير عام 1858م، واتهموه بأنه

تعاون مع الثورة هو وابنه «ميرزا مغل» ضد الإنجليز، وأنه أمر وشارك فى قتل الإنجليز رجالًا ونساءً وأطفالًا (وكانت تهمةً كاذبة، إذ الثابت أنه حين تولَّى قيادة الثورة، كانت أوامره صريحةً بعدم الاعتداء على الإنجليز من غير المحاربين منهم). وبعد جلسات المحاكمة، أصدر القضاة حكمهم بالإعدام، ثم خُفِّفَ الحكم إلى النفى إلى مدينة "رانكون" عاصمة بورما، وتم تنفيذ النفى فى يوم الخميس الموافق 17 من أكتوبر عام 1858م، ورحل هو وأسرته وبعض أفراد حاشيته إلى بورما، وهناك خصصوا له مكانًا لمحبسه، ومكانًا آخر لزوجه وأولاده، وخضع الجميع لحراسة مشددة.

وبنفى «بهادر شاه» سقطت دولة المغول الإسلامية فى الهند، وطُوِيَتْ آخر صفحة من صفحات الحكم الإسلامى فى الهند الذى ظل شامخًا أكثر من ثمانية قرون. ثم أقدم الإنجليز على تأكيد مخططاتهم وما كانوا يحاولون ستره بأشكال مختلفة، فقد أصدرت الملكة «فكتوريا» فى الأول من نوفمبر عام 1858م أمرًا بنقل حكم الهند من يد شركة الهند الشرقية إلى يد المحكمة البريطانية، وبذلك دخلت الهند رسميًّا ضمن مستعمرات التاج البريطانى، وظلت كذلك حتى اضطُر الإنجليز للجلاء عنها فى سنة 1947م.

وفاة «بهادر شاه»

ظل «بهادر شاه» فى محبسه حتى وافته المنية فى عصر يوم الجمعة الموافق 7 من نوفمبر عام 1862م وقد بلغ من العمر 89 سنة،

قضى منها أربع سنوات فى منفاه. وكان «بهادر شاه» شاعرًا مجيدًا، ففاضت قريحته أسًى وحزنًا على ما وصل إليه، وما آلت إليه دولته.

وقد قامت منظمة اليونسكو بإدراج ضريح "تاج محل" فى قائمة التراث الثقافى العالمى، كما اختير كأحد عجائب الدنيا السبع الجديدة فى استفتاء عالمى جرى فى عام 2007. وهو مبنى عملاق يشرف على مدينة "أكرا" التى كانت عاصمة المغول فى ذلك الحين، إلى أن قام الإمبراطور «شاه جهان» ـ الذى حكم الهند قبل أكثر من 300 سنة ـ بنقل العاصمة من "أكرا" إلى مدينة "دلهى"، والتى بقيت عاصمة للهند حتى اليوم. وقد شَيَّد الإمبراطور «شاه جهان» هذا البناء الضخم تكريمًا لزوجته وشريكة حياته «ممتاز محل»، حيث كان الإمبراطور يحب زوجته كثيرًا لأنها كافحت معه وأخلصت له وأنجبت له الأولاد، فلَـمَّـا تُوفيت فى عام 1630م، حزن عليها حزنًا شديدًا، وقرر أن يقيم لها أجمل مقبرة يمكن أن يشاهدها إنسان، فاستدعى المهندسين المعماريين من كافة أنحاء العالم ليتعاونوا فى وضع تصميم مميَّز لهذا البناء، وبعد 18 عامًا أصبح البناء جاهزًا بعد أن اشترك فى تنفيذه أكثر من 20 ألف عامل، وقد جلبوا له الحجارة الجميلة والرخام الأبيض المصقول من الهند ومصر والجزيرة العربية والتبت.

ويعد "تاج محل" أكبر مزار سياحى فى الهند، ويجتذب أكبر عدد من السياح، حيث يزوره ثلاثة ملايين سائح سنويًّا لِـمَـا له من

روعة وجمال فى تاريخ العمارة بالهند. ويتميز بأبوابه الرئيسية الثلاثة، ويبلغ ارتفاع المبنى حوالى 61 مترًا، وجدران المبنى مكونة من الرخام الأبيض، وكُتبت عليها آيات من القرآن الكريم باللون الأسود، وقد تم ترصيع وتزيين الجدران بالأحجار الكريمة والعقيق وزهور عَبَّاد الشمس وأحجار الفيروز فى تنسيق رائع يبهر الأبصار ويَسْلِب العقول، كما تحيط بالمبنى من كل جانب مجموعة من القباب الكبيرة والصغيرة غير المتصلة، والتى يبلغ ارتفاع بعضها 41 مترًا. وبعض الرسوم البارزة تُعتبر مرجعًا لدراسة فن الرسم فى الهند أثناء العهد المغولى. وكانت تحيط بالمبنى حديقة كبيرة تُعتبر قمة فى التخطيط والتنسيق الرائع، حيث كانت تضم النافورات الجميلة والأشجار العالية المُشَكَّلَة بطريقة هندسية جميلة. وبعد وفاة الإمبراطور دُفن فى نفس البناء إلى جانب زوجته. ويوجد النُّصُبان التَّذكاريان لكلٍّ من «ممتاز محل» و«شاه جهان» فى قاعة ثُمانية الأضلاع، وقد أُنجزت النقوش التى تتواجد عليهما بطريقة متقنة، وتمت إحاطتهما بستائر رخامية مطعَّمة بالمرمر والأحجار الكريمة. ويوجد بالداخل مسجد وقصر للضيافة استغرق بناؤهما خمس سنوات، وهناك أربع منارات، ثلاث منها بُنيت مائلةً عكس الاتجاه لألَّا تقع على البناء فى حالة حدوث زلزال، أما المنارة الرابعة فبُنيت بزاوية قائمة بعيدة قليلًا.. ولا ترمز المنارات الأربع لشىء معين، بل تعد ديكورًا جميلًا للبناء. ولا

يُعرف بالضبط منفِّذ هذا العمل، ولكن يرجَّح أن يكون هو المهندس المعمارى «أستاذ عيسى» (وهو من أصول تركية أو فارسية)، إلى جانب «خان رومى» الذى أشرف على أعمال بناء القبة، و«رانمال» الذى قام بتخطيط الحدائق.

وحين يَحِلُّ الغروب، لا بد لجميع زائرى مجموعة "تاج محل" المعمارية من الانصراف؛ فهناك مخاطر تحوط "تاج محل"، ويتمثل آخر تلك المخاطر فى اعتصام جماعات هندوسية متطرفة تسعى إلى الاستحواذ على المكان بادِّعاء أن المسجد والتاج أقيما على أنقاض معبد هندوسى للإله «شيفا»، ويطالبون أتباعهم بضرورة هدم "تاج محل" والبحث عن قواعد المعبد الكامنة أسفل المصطبة المرمرية الكبرى التى يقف عليها التاج.

ولا شك أن "تاج محل" هو أعظم وأشهر الآثار الإسلامية، حتى لقد لُقِّبَ بألمع جوهرة فى تاريخ العمارة بالهند. وقد ظهر الفن الإسلامى فى شمال الهند حينما استولى المسلمون على "دلهى" عام 1193م. ويمكن تقسيم تاريخ هذا الفن إلى عصريْن عظيميْن، الأول هو **عصر الباتان**، وأهم ما يمتاز به هذا العصر أن العمارة فيه كانت تَذكارية معبِّرة، وذلك بتقدم فن البناء وطرق الإنشاء باستعمال الحجر الرملى والرخام بمختلف أشكاله وأنواعه، حتى أصبحت مدينة "دلهى" العاصمة بما

حَوَتْهُ من مبانٍ ضخمة وآثار إسلامية تضارع أثينا أو روما. أما العصر الثانى فيسمَّى **العصر المغولى** (2526م إلى 1857م)، وقد تأثرت فيه الفنون بالفن الهندى القديم، ومن ثَم فقد تميزت عمارتُهُ وأبنيتُهُ بالنافورات وخلجان المياه؛ مما أضفى على هذه الأبنية سحرًا خاصًّا.





الخاتمــة

هكذا نَخْلُصُ إلى أن نجاح المشروع المغولى يرجع أساسًا إلى شخصية «جنكيز خان» مؤسس الإمبراطورية المغولية؛ فقد كان يتمتع بالموهبة الإدارية والنفسية والعقلية، وكذلك وضعه قانون "الياسا" الذى كان عبارةً عن مزيج من العادات والمواريث التاريخية المغولية، فنجح فى تحويل المغول من قبائل رعوية متفرقة إلى كيان واحد متماسك يحكمه قانون "الياسا". وعلاوةً على ذلك، فقد انتهج سياسة حربية تقوم على الحرب النفسية لإدخال الخوف فى نفوس الأعداء، وتقوم كذلك على استغلال الأسرى فى خدمة جيوشه، واتباع أسلوب الصدمة الأولى، واعتماده كذلك على فريق من العملاء يتم من خلالهم جمع المعلومات عن الأعداء.

كما اهتم المغول أيضًا بالاستفادة من خبرات علماء الأمم المهزومة، فكانوا إذا غَزَوْا بلدًا ينتقون الصُّنَّاع المَهَرَة وأصحاب الفنون ويرسلونهم إلى العاصمة منغوليا. واهتم المغول أيضًا بمبدإ الشورى الممثَّل فى "القوريلتاى" الذى يُعقد بشكل سنوى، ويشارك فيه قادة المغول لمناقشة أحوال البلاد وتحديد متطلبات المرحلة القادمة.. ومع كل ذلك، كانت الوحشية هى الصفة المسيطرة عليهم، إلى أنْ حدث الاحتكاك المباشر بينهم وبين

المسلمين الذين تمكَّنوا من الانتصار الحضارى عليهم، فنجحوا فى كَبْح جِمَاحهم الوحشى، وتمكّنوا من ترويض هؤلاء البدو قُسَاة القلوب الذين لا يعرفون للرحمة مكانًا، ولا يدينون بأى دين سماوى، كما نجحوا فى بثّ رُوح جديدة فى المغول بعد أن اعتنق كثيرٌ منهم الإسلام وأرادوا التكفير عن ذنوب أجدادهم السابقين، فبدءوا فى الإسهام فى الحضارة الإسلامية، سواء فى العلوم والآداب.

وبذلك بدأت صحوةٌ إسلاميةٌ مغوليةٌ هدفُها كَسْب الشعوب الإسلامية، والتخلى عن الأسلوب البغيض الذى انتهجه «جنكيز خان» وأبناؤه، وذلك بعد أن نجح المسلمون فى الكشف عن العادات والتقاليد الإسلامية السَّمْحَة، وبيَّنوا لهم رسالة الحق.

لا رَيبَ إذن أن الإسلام هو صاحب الفضل الأول فى إعادة تشكيل الإنسان المغولى، إذ جعله يجنح إلى طريق الخير، ويتخلى عن إراقة دماء الغير دون أى ذنب، فقد كان القتل هوأبسط شىء يمكن أن يُقْدِم عليه المغولى لأنه جُبِلَ على القسوة. واكتسب المغول بعد ذلك مقومات الحضارة الإسلامية، وشَرَعُوا فى استقطاب العلماء المسلمين فى كافة مجالات العلوم والمعارف؛ وذلك لخلق أجيال جديدة واعدة تَدِين بدين اللـه عز وجل، وتعمل من أجل نشر دينه تعالى.

أبرز المراجع



8. الباز العريني: **المغول** ـ بيروت: دار النهضة العربية، 1981م.

ثانيًا: مواقع على شبكة الاتصالات العالمية

1. إسلام أون لاين.

2. موسوعة دهشة.

3. قصة الإسلام.



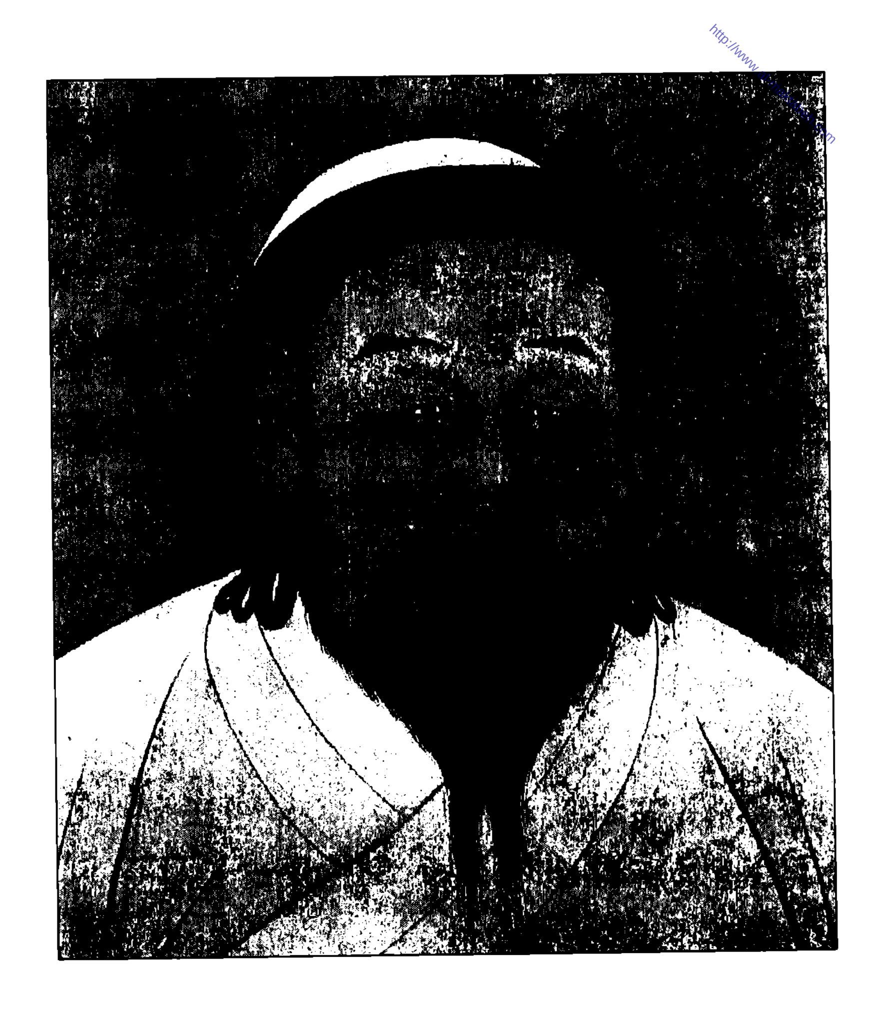
أولاً: الكتب

1. رشيد الدين فضل الله الهمدانى: **جامع التواريخ** (تاريخ المغول)، ترجمة الدكتور محمد صادق نشأت والدكتور فؤاد الصياد ومحمد موسى الهنداوى ـ المجلد الثانى، الجزء الأول ـ القاهرة، 1960م.
2. فؤاد عبد المعطى الصياد: **الشرق الأوسط فى عهد الإيلخانيين** ـ الدوحة، 1407 هـ/ 1987م.
3. عباس إقبال: **تاريخ المغول**، ترجمة عبد الوهاب علوب ـ أبو ظبى: إصدارات المجمع الثقافى، 1420هـ/ 2000م.
4. عبد السلام عبد العزيز فهمى: **تاريخ الدولة المغولية فى إيران** ـ القاهرة: دار المعارف، 1980م.
5. ابن تغرى بردى: **النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة**، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1944م.
6. **الدولة الخوارزمية والمغول** ـ ط. 1949م.
7. **جنكيز خان وجحافل المغول**، ترجمة مترى أمين ـ القاهرة 1962م.

اللوحات



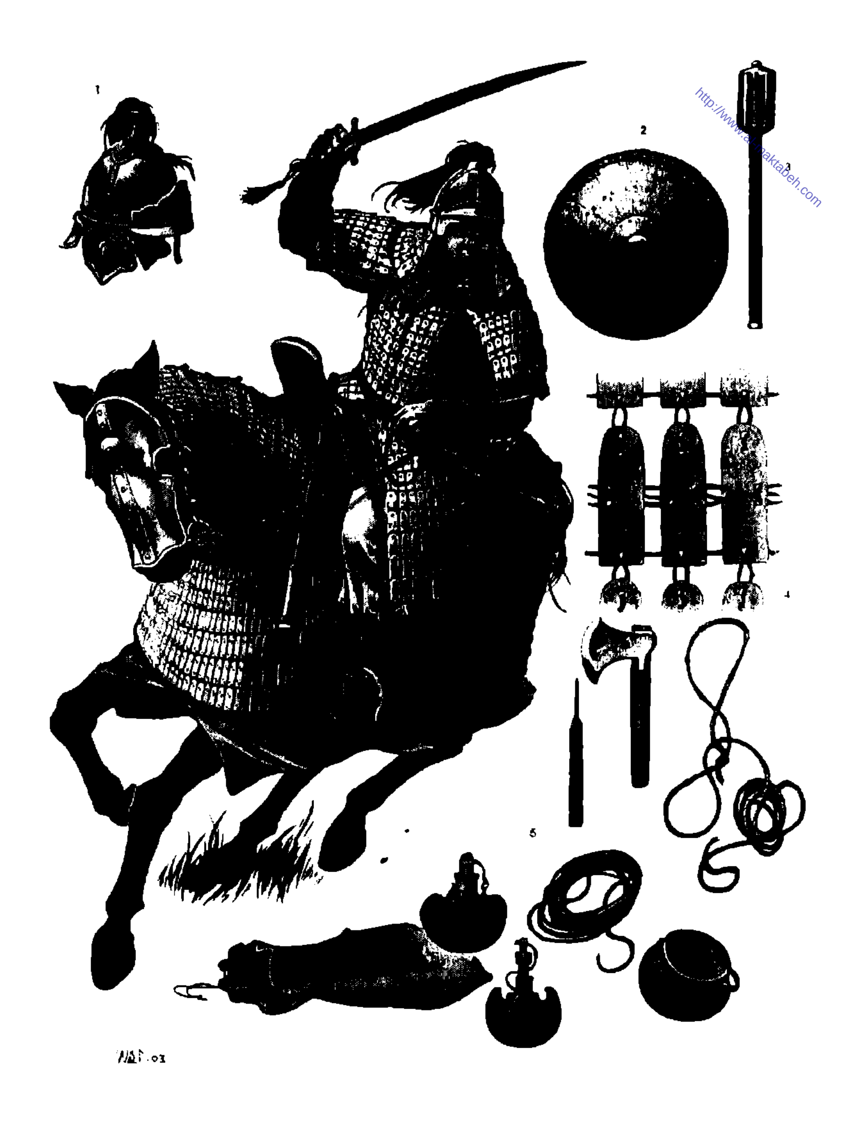
1. صورة «جنكيز خان» كما تخيلها بعض الفنانين. والمعروف أن «جنكيز خان» ليست له أي صور تعرّفنا بشكله الحقيقي.



2. صورة «قوبلاي خان» كما وردت في مرجع تاريخي معاصر له.



3. زي المقاتل المغولي وعُدّته الحربية.



4. الفارس المغولي وشِكّتهُ الحربية وزيه المدرّع ومكوناته.



5. قائد مغولي في لباس الحرب. من تصوير فنان صيني معاصر لهجمات المغول على الصين.



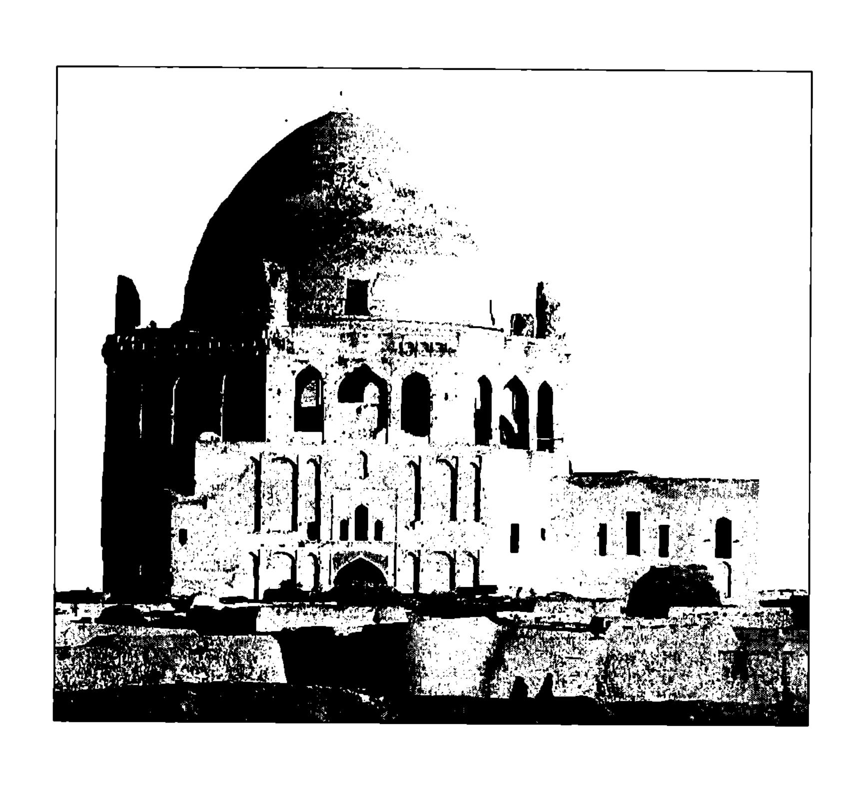
6. وحشية الجند المغول في التعامل مع أهل الأمصار المغزوة.



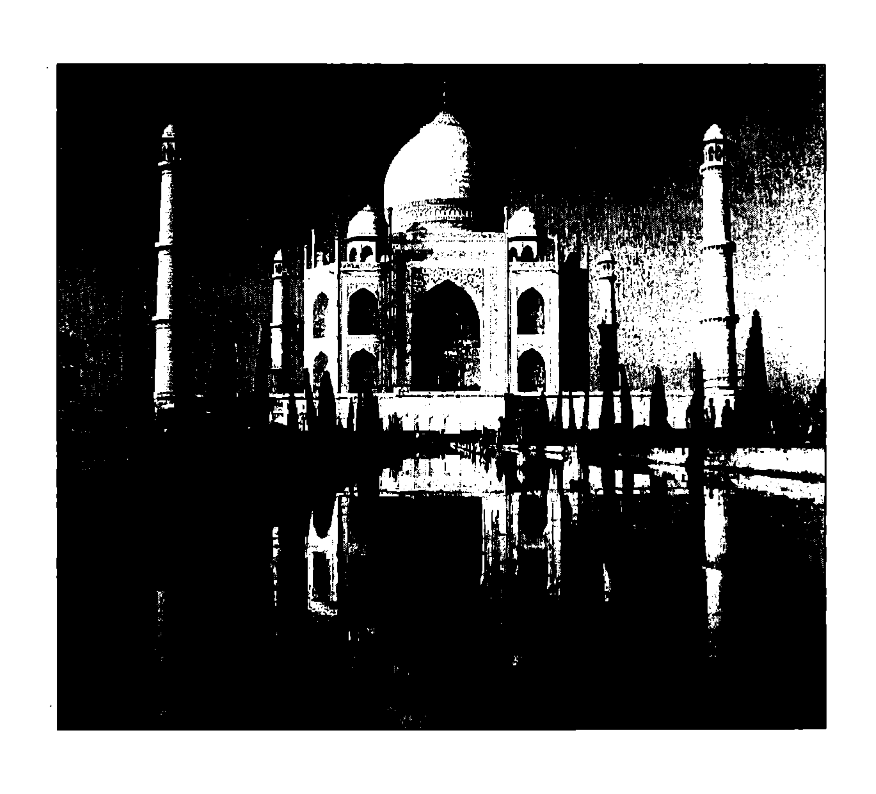
7. كتابة مغولية على صخرة بصحراء منغوليا.



8. الخيمة المغولية (اليارت) وطريقة تكوينها.



9. ضريح «أولجايتو خده بنده» في مدينة "سلطانية" (بايران حالياً)..
نموذج بارز على فنون العمارة المغولية.



10. ضريح تاج محل في "أجرا" بالهند.. تحفة معمارية مغولية.